أول مايو سنة ١٩٣١
ذو الحجة سنة ١٣٤٩

المعرفة

الجزء الأول
السنة الأولى

مجلة شهرية جامعة
لصاحبها ومحررها
عبد العزيز الإسلامبولي

شعارها : إعرف نفسك بنفسك

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المحرر

باسمك اللهم نفتتح باب « المعرفة » ونصلى ونسلم على نبيك القائل « من عرف نفسه فقد عرف ربه »

وبعد فها هى (المعرفة) تطالع قراءها ، بأول جزء من أجزائها ، راجية أن يجدوا فيه ، مايدفع إلى نفوسهم فكرة مما أردنا لها القيام بتحقيقه . مما لا نود أن نتلوه عليهم بيانا طويلا ، أو نرسمه لهم منهاجا عريضا . لنسرد فى الأول ما يجول بخاطرنا من رغبات وأمان ، أو نرسم فى الثانى ما تترقرق به جوانحنا من نزعات وآمال . فلا تكون إلا قولا مسطورا ، أو تصبح عهدا مقروءا ، يهب مع الريح أينما تهب

ولطالما قرأنا كثرة من العهود لاتحصى ، وسمعنا عددا من الوعود لايحصر. تقدم بها كتابنا إلى قرائهم ، فى صدر العدد الأول لصحفهم . وما نلبث قليلا ، حتى نراهم وقد داروا دوران عجلة القاطرة . وتبخرت وعودهم تبخر الماء تأثر بالحرارة ، وراحت عهودهم فى خبر كان .

***

لهذا لا نود أن نحمل أنفسنا عهدا ، أو نقيد صحيفتنا وعدا . وإنما نود أن يرى القراء بأنفسهم مجهودنا . ويتحققوا باختبارهم منهجنا . إلا أنا نرى — خشية اتهامنا بالمبالغة — أن نذكر لقرائنا ، طرفا من أهم أغراضنا

***

وإذن فلنقرر بأن من أهم أغراضنا : ربط البلاد الشرقية بعضها ببعض أولا ، ومن ثم ربط الشرق بالغرب ثانيا ، وذلك بالعمل على نشر معارف الأول فى الثانى . فما يزال الشرق مبعث الحكمة والنور ، ومهبط الوحى والالهام ، وأب العلم والمعرفة ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر

كذلك نعمل على استخلاص النافع لنا من علوم الغرب ، واستصفاء مايصلح لنا من مدنيته ، لنقوم بها بنيان مدنيتنا . فالحق أنا لانستطيع انكار ما للغرب من مدنية وعلم وحضارة .

***

واذن فستكون (المعرفة) بابا للمعارف العامة . وهى تود لو يحقق لها الزمن أن تكون مركزا لنشر المذاهب الصوفية السامية ، وبعث الفلسفة الاسلامية العالية ، وإحياء الحكمة المشرقية القديمة ، وبناء الأدب العربى وتجديده ، وإذاعة الفن السامى وتنقيته . وأن تكون معولا هداما ، لبناء المذاهب المادية الالحادية ومبضعا دقيقا لبتر الفاسد من مذهبى الثيوسوفية واستحضار الأرواح وغيرهما من المذاهب المنتشرة فى أوربا وأمريكا . ومصلحا مقوما لغلطات بعض المستشرقين ، الذين وقعوا فى أخطاء علمية ، وتخيلوا فروضا همية . فيما كتبوه

عن الشرق وعلومه . ولسنا بهذا منكرين لهم فضلا ، أو جاحدين لهم نعمة . وإنما الحق يقال . فليس الدخيل كالأصيل . ورب الدار أدرى بما فيها .

***

وسبيلنا إلى القيام بهذا الذى أخذناه على عاتقنا . هو أن نأتى بماقرره هؤلاء وأولئك من قضايا وأوضاع ، نتولاها بالبحث والتمحيص ، والنقد والتحليل فما كان منها سليم المادة صحيحها أخذنا به . ومالم يكن متفقا والحق ، نقضناه نقضا علميا ، خاليا من التعصب لرأى ، أو مشوبا بتحامل ما . ليتبين الحق من الباطل ، و يتضح الصبح لذى عينين .

ولن تمنعنا خدمة المبادىء الصرفية والفلسفية ، عنايتنا بالموضوعات التى تشوق بعض القراء عامة ، والشباب منهم خاصة . بشرط تحقق الفائدة الأدبية منها . ولتكون عاملا من عوامل اجتذابهم الينا . فان الحكمة — والحق يقال — كأس مريرة المذاق ، طعمها كالعلقم ، لا يستطاب بغير السكر . ونحن هنا مضطرون — فى سبيل بث أفكارنا . وفى سبيل مهنتنا — لأن نتخذ من ميل كل قارىء لبنة ، يقوم عليها بنياننا ، وتتحقق بها أغراضنا .

وإذن فلا غضاضة علينا اذا مامزجنا الجد بالفكاهة أحيانا ، فقديما كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقا ، وكذلك روى عن عمر ابن الخطاب ، أنه كان يترنم بقول القائل :

وللّه منى جانب لا أضيعه ☆ وللهو منى والخلاعة مذهب

وماأحسن قول أستاذى ، الدكتور منصور فهمى ، وقد سألته فى هذا فقال « أسلك كل السبل المشروعة لنشر صحيفتك . فتلك حيل شريفة ، تتخذ لبث المعارف الحقيقية فى النفوس . مادام الذين يعنون بدراسة الحقائق ، قليلين جدا » وقد كان هذا نفسه رأى العلامة الجليل الأستاذ فريد بك وجدى ، الذى خبر الصحافة والكتابة ظهرا و بطنا

كذلك نصحنى الأستاذ الجليل مصطفى بك عبد الرازق . بألا أقيد صحيفتى برأى دون رأى ، أوأقف الكتابة فيها على زيد دون عمرو . بل أجعلها معرضا لكل رأى ، ومجالا تتبارى فيه أقلام الكتاب . فالعلم أو المعرفة ليس وقفا على شخص معين

وهذا حق ياسادة . فالمعرفة فى التحقيق ، كلمة تجمع الآثار ، أو المنتوجات العقلية وغيرها . فالعلم والدين والفلسفة ، بل والأدب والفن ، كلها صور وآثار ، تجمعها كلمة المعرفة

* * *

وأود أن أبرئ نفسى ، من تهمة الادعاء بتمثيل هذا الجزء لنا . أو بكل مايجول بخواطرنا . فما نزال فى الخطوة الأولى من خطوات السفر . وعند مفترق الطرق من المرحلة . وما أصعب البدايات ياصاح !!

لتكن إذن هذه البداءة . بشيرا لنا فى المستقبل ومرشدا ، نستجلى بها حقائق أميال القراء ورغباتهم . ونستوحى منها وحى المفكرين وسديد خواطرهم . حتى نصبح أقرب إلى اليقين ، وأيسر إلى التحقيق إذا مااستطعنا التوفيق فيماندعيه

* * *

هذه سبيلنا فى العمل . رسمناها للقراء على الرغم منا ، ولسنا نطلب إليهم أكثر من تشجيعنا إذا كان حقا مانقرره . أو إصلاح خطئنا بتقويمه وتصحيحه وليس علينا فى هذا من عيب مطلقا ، وإنما العيب على من يرى الخطأ فلا يرده وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الساكت عن الحق شيطان أخرس »

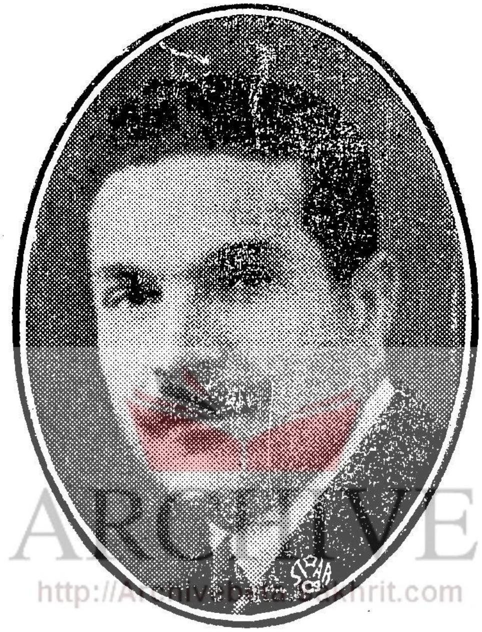
والله أسأل أن يجعلنى ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأن يحقق (للمعرفة) شهادة الاستاذ السيد محمد التفتازانى ، فتكون « مرجعا لذوى الفضل وأهل العلم فى الحركة العلمية والأسلامية » كما كتبه للعلامة أحمد زكى باشا والسلام ؟

عبدالعزيز مصطفى الاسلامبولي

الأخلاق وفلسفة الجبر

للدكتور منصور بك فهمى

أستاذ الفلسفة بالجامعة المصرية



(أحدث صورة للدكتور . خاصة بمجلة المعرفة)

الدكتور منصور فهمى : فيلسوف بطبعه قبل أن يعرفه الناس فيلسوفا بصناعته . وماذا تطالب من الفيلسوف أكثر من أن يكون كما قال أفلاطون : ذا رغبة وقادة فى معرفة كل الموجودات الحقيقية . يبغض الكذب ، ويحب الصدق . يحتقر اللذات الجسدية ، ولايكترث للمال . سامي المدارك . حر الفكر . عادل دمث . سريع الخاطر . ذا فطرة وقادة .

والحق أن انسانا — بالغا مابلغ من حب النقد — لايستطيع بحال ما . انكار توافر هذه الصفات فى أستاذنا الجليل . وفضله على الامة متمثلة فى شبانها ـ الذين أضحوا بفضله فخر الشباب المثقف . وزينة المجامع العلمية — لاينكر

وأستاذنا يمتاز على غيره . بأنه رجل لايصدر الا عن ذات نفسه . فهو يقول مايعتقد تماما ويصرح بما يقصد فى غير مامواربة أو تعليق

تشرفت بزيارته . راجيا تزيين (المعرفة) ببحث من بحوثه القيمة . فتفضل على وأملانى هنا البحث القيم الذى كنت وأنا أستمع اليه كأنما أستمع الى الوحى يتنزل عليه ؟

المحرر

طالما يسند علماء الغرب ومفكروه فلسفة الجبر ، إلى السواد الأعظم من الشرقيين ، وبالأخص المسلمين منهم .

والمقصود بفلسفة الجبر . هو هذا المذهب القائل : بعجز الارادة والعقل عن تشييدشؤون حياة الانسان . وبعبارة أخرى نفى الفعل حقيقة عن العبد ، وإضافته الى الرب

ياوح المسلم إذن لنظر بعض أهل الغرب ، فى صورة من يرى أعماله مقدرة عليه بارادة غير إرادته . ولعل هذه الصورة التى يلوح عليها المسلم فى نظر غيره . قد تكونت مما كتبه عدد كبير من أدباء الغربيين فى كتبهم وقصصهم ، التى صوروا بها أهل الشرق . فيظهرون فى تلك القصص أبطالها ، صابرين على الأذى باسمين لأحداث الدهر ؛ تتردد على ألسنتهم كلمات يتعزون بها كمرادفات : « القسمة » و « الحظ » و « البخت » و « النصيب » و « المقدور » و « القضاء »

وربما يكون كذلك من العناصر المكونة لصورة الشرقى ـ على نحو مايراه الغربى ـ تلك المناقشات وضروب الجدل ، التى كانت فى العصور الخوالد ، إذ كانت الفلسفة الأسلامية فى شبابها . وكانت أصداء تلك المناقشات والمجادلات تتردد بين مذاهب أهل الجبر وخصومهم فى زمن دولتى بنى أمية وبنى العباس

لكن مسائل الجبر والقدر ، ليست من المسائل التى تفرد بها الشرقيون ، بل هى من أمهات المسائل التى تشغل أذهان البشر ، مذعرف البشر لنفسه تاريخا . وذلك لأنها من المسائل الفلسفية العويصة ، التى من طبيعة الذهن البشرى ، أن يتشوف إليها . وقد يتناولها بالبحث : كمسألة علة الوجود ، وكمسألة الروح والخلود ، وكمسألة الحسن والقبح وغير ذلك مما يشغل الأنسان . إذ يتعمق فى النظر الى الأمور ولقد كان فى فلسفة اليونانيين الرواقيين ، مايؤدى إلى معانى الجبرية . وكذلك فى فلسفة النصرانية . على أن الأسلام قد اشتهر بهذه الفلسفة على وجه أخص

والجدير بالبحث والتمحيص ، عند تناول موضوع الجبر فى الأفعال . هو أن نميز بين الحياة النظرية الخالصة ، والحياة العملية الخالصة . أو بعبارة أخرى : أن نميز بين حاجات الفكر المحض وحقه من التحليق فى سماء النظريات المطلقة ،

والتأملات المجردة . وبين حاجات الحياة العملية ، وحقها من نجاز العمل وتحقيقه

وليس من شك فى أن للفكر النظرى الخالص ، أساليبه ولذاته من التطاول إلى العلل البعيدة ، والمراجع الأولى للأمور ، وذلك لأن العقول . تتوثب بطبيعتها لتتغلغل فى أصول الأشياء مادامت الموانع لذلك التغلغل مرتفعة . وليس من شك كذلك فى أن الحياة العملية ، تقتضى إسراعا وبتا وقطعا ، وذلك لأن كل عمل ، أو فعل ، إنما هو بطبيعته تحقيق وظهور للقوى التى تنتهى إلى العمل حين تتعدى حالها الى حاله . ومن كمال تحقيق الفعل الأسراع .

وإذا كان الامر كذلك ، فان حاجات الحياة العملية ، تغاير حاجات الحياة الفكرية فبينا نجد هذه الأخيرة تشير بالفكر الى أبعد الأصول والعلل والغايات والمقاصد نرى أن الحياة العملية طالما تقضى بغض النظر عما لا يتصل بالعمل اتصالا مباشرا .

وبينا نجد حاجات الحياة الفكرية الخالصة ، قد تجر إلى ضروب من الحيرة والتردد ، نجد أن الحياة العملية ، تقضى بأساليب من القطع والجزم . ولعل ديكارت حين أراد أن يتخير لنفسه مذهبا يسير عليه فى السلوك ، رأى أن أسلم السبل ؛ يكون فى الخضوع لمطالب العرف ، وذلك لأن أمر السلوك ومعاملة الناس ، من الأمور العملية الناجزة التى لا تترك مجالا لكثرة التفكر ووفرة النظر .

***

الأنسان فى أفعاله وسلوكه ، يخضع لناموس الكون من حيث اتصال العلة بالمعلول . لكن من خصائص الأرادة أو الانسان المريد ، أن يقصر المدى . ويضيق المجال عندما ينظر إلى سلسلة العلل الممتدة البعيدة التى تتصل بعمل من أعماله ، وإن فى هذا التقصير والتضييق ، تحديدا اعتباريا ، وقطعا تحكميا ، من الانسان فى هذه السلسلة الطويلة ، التى لا تنتهى إلا عند السكون والركون إلى العلة الأولى . وعند هذا القطع التحكمى ، الذى لا تلوح معه للناظر إلا العلل القريبة ؛ قد يخيل للانسان المريد الموجه لأعماله أنه فاعل لها . وذلك لتدخله واندساسه

فى حلقات تلك السلسلة المتواصلة ، بحيث لا يرى منها إلا ما يريد أن يراه معلقا بالأرادة وبحيث يحجب عن النظر ما لا يريد أن يراه من حلقات هذه السلسلة المترابطة ، وبحيث يفرض لنفسه القـدرة على التدخل فى الأمور أو الأنقباض عنها .

وعلى هذا ؛ ففى مقام الفكر والنظر الخالص ، لا يبدو للعقل المجرد ، إلا فلسفة الجبر والترابط ، وفى مقام العمل والحياة العملية ، ليس يبدو للفكر إلا فلسفة الاختيار

واذا كان من نصيب أكثر الشرقيين ، أن يصح فى حقهم ما يصورهم به الغربيون كأنصار لمذهب الجبر ، يدينون به ، ويؤمنون بفلسفته ، فربما يكون من الأسباب التى تحمل على تصور ذلك ـ دون تعمق ومن غير تحفظ ، بين أسلوبى الحياة العقلية والعملية ـ أن الشرقيين مرت عليهم ، أحقاب من الزمن ، وهم فى ظل الحضارة الطبيعية ، وأقصد بالحضارة الطبيعية ، ذلك الأسلوب من العيش ، الذى هو أدنى إلى مسايرة الطبيعة فى قوانينها ونواميسها ، من غير كبير تدخل من العقل والارادة فى أمر هذه النواميس والقوانين . ففى حياة الطبيعة والفطرة ينمو النبات ويؤتى ثمره ، وفق نظام نوعه ، فى أوان معين . وفى الطبيعة والفطرة تقطع المسافات البعيدة أو القريبة ، وفق نظام الانسان فى تركيبه الجسمى ، أو وفق نظام الحيوان فى طاقته ، أو وفق سير الهواء فى قوته ، أو وفق مجال الأنهار والتيارات فى اندفاعها . وإن حياة الطبيعة الساذجة ، أو الفطرة الأولى التى لم تنبث فيها نظم العمران وحاجاته ، من توزع الأعمال ، ومظاهر العقل ، ودوافع الأرادة ، قد تجود هـذه الحياة على الأنسان بفترات واسعة مباركة من الزمن ، قد تستخدمها الجبلة النظرية للعقول الممتازة ، فى التطاول إلى العلل البعيدة .

وعلى هذا فان الحياة الشرقية ، التى كانت أدنى ، أوهى أدنى إلى مميزات الحياة الفطرية وكانت بذلك أدنى ، الى الجود بفترات من الزمن والوقت ، لحاجة الأنسان ، فانها من غير شك ، كانت تهيء إلى قابلية أوسع لفلسفة الجبر ، وما تجر إليـه من فلسفة التوكل التى ينظر إليها بشىء لا يخلو أحيانا من تهكم وتعجب لا قيمة لها فى نظر التمحيص والتحقيق .

وعلى عكس ما تبدو به صورة الشرقى والحضارة الفطرية ، نرى أن المدنية الصناعية التى نشأت فى الغرب وفى الزمن الأخير ، تعمل جهد طاقتها ، فى التسلط والسيطرة والتدخل فى سنن الطبيعة . فقد تنبت النبت فى غير أوانه المعهود ، وتقرب الأصقاع المتنائية على مالا يعهد الناس ، من أدواتهم ووسائلهم الساذجة وهذه الحضارة الصناعية : قد تستولى من الأنسان على جميع وقته الذى يتوزع بين العمل وحاجات الحياة الاجتماعية على نحو تصبح النفس البشرية فيه ، كأنها آلة من الآلات المتحركة فى دأب واستمرار . فلا تجد النفس وسعة من الزمن لتتسامى فيها عن حاجات الحياة اليومية العملية إلى مطالب طبيعتها ، من التأمل المريح ، الذى يظهر للنفس والعقل صورتهما الحقة ، وطبيعتهما التى قد تتوارى من أثر الحضارة الصناعية ، على ما هى عليه فى صورتها الراهنة المرهقة .

والخلاصة أن كل حضارة ، أو كل أسلوب من الحياة ، يفسح مجالا للعقل النظرى الراقى ، فهو مبلغ من غير شك إلى المسائل الفلسفية العالية التى منها فلسفة الجبر

وعندى : أنه اذا أتيح للحضارة الصناعية التى هى من مميزات الغرب والزمن الحاضر — أن تنتهى إلى توزيع الأعمال والجهود والثروات والمنتوجات توزيعا عادلا ، بحيث يجد الأنسان الممتاز فراغا للتأمل — فان هذه الحضارة الغربية الصناعية ، تؤدى إلى فلسفة الجبر التى هى من ملازمات بركة الوقت ، أكثر منها مما لو كانت من خصائص صنف من الناس ، أو صنف من العقول .

أما ماقد يقال عن ضعف إرادة بعض الشرقيين ، وقصور همتهم ، للمضى فى أعمال الحياة ، فذلك له أسبابه الكثيرة التى لا نتعرض لبحثها الآن ، لاننا فرقنا بين مباحث الفكر النظرى وحاجاته ، وبين الأرادة وحاجاتها فى الحياة العملية وإن ما تناولناه من هذا البحث ، يتصل بموضوع الفلسفة النظرية وأساليب التفكير المجرد . وإذا كنا أهملنا بحث الحياة العملية ، فى هذا المقال ، فذلك لكى نشير ، من خلال ما تقدم ، إلى أن فلسفة الجبر ، ليست خاصة من خصائص الشرقى ، ولا من خصائص الغربى ، ولكنها من آثار العقل المجرد الراقى ، إذ يجول فى فسحة من الوقت ويرتاض فى بحبوحة من الزمن ؟

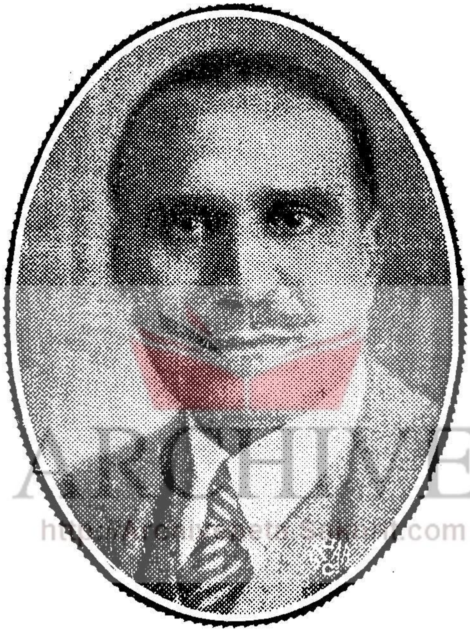
منصور فهمي

رابعة العدوية

بحث تحليلي فلسفي تاريخي

للأستاذ مصطفى بك عبد الرازق

أستاذ الفلسفة الاسلامية بالجامعة المصرية



(صورة فريدة للأستاذ بالزى الافرنجي لم تنشر قط)

الاستاذ مصطفى بك عبد الرازق ، على رأس طائفة العلماء الممتازين ، الذين جمعوا الى دراسة القديم وروعته ، الالمام بالجديد ونضرته . وهو واسع الاطلاع لدرجة تذهل محدثه . فقل أن يفوته شيء من مؤلفات الشرق أو الغرب ، وبخاصة ما كان متصلا منها بالفلسفة الاسلامية . وهو لهذا يعد بحق أعرف الناس بها .

وما أظن أني تشرفت بزيارته مرة ما : الا وجدته بين تلال من الكتب ، يعمل فيها بحثا وتنقيبا ، حتى يظفر منها ببغيته ، فيصيح في أعماق نفسه صيحة أرشميدس الذي قال : لقد وجدتها وهو فوق هذا كله رجل جم الأدب ، كريم الخلق ، يكاد يسيل رقة وعذوبة ، ولعل لهذه الطباع الحميدة مقرونة بمقدرته العلمية ، أكبر الأثر في اجماع الناس على محبته واجلاله

وقد تفضل علينا بهذا البحث الذي يراه القراء على الصفحة التالية ؟

المحرر

هي رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية . ولقبها ابن خلكان بأم الخير . وذكر أنها مولاة آل عتيك . وعتيك ـ كأمير من الأزد . والنسبة إليه عتكى محركة وقال ماسنيون فى كتابه أصول الاصطلاحات الصوفية : وإن رابعة عتيقية لآل عتيك ـ بالتصغير ـ وهى قبيلة من قيس . ولم نر أحدا ممن ترجموا لها ذكر تاريخ ميلادها . ثم إنهم اختلفوا فى تاريخ وفاتها . فمن قائل إنها توفيت سنة خمس وثلاثين ومائة . ومن قائل توفيت سنة خمس وثمانين ومائة

قال الشعرانى فى الطبقات : وكانت بعد أن بلغت الثمانين سنة كأنها شن بال(١) تكاد تسقط إذا مشت . وكان كفنها لم يزل موضوعا أمامها ، وكان بموضع سجودها . وهذا يدل على أنها عاشت أكثر من ثمانين عاما . وذكر « ماسنيون » فى كتابه المشار إليه آنفا . أن رابعة قضت حياتها بالبصرة كأنها مسجونة ، وبها ماتت فى سن لاتقل عن ثمانين سنة ، وذلك فى عام ١٨٥ هـ ٨٠١ م . ولم تكن وفاتها سنة ١٣٥ هـ ٧٥٢ م كما زعموه ليجعلوا منها تلميذة للحسن البصرى . وأدلة ذلك صداقتها لرباح ، وكونها لقيت الثورى الذى جاء البصرة بعد سنة ١٥٥ . ومن الأدلة : مارووامن خطبة محمد بن سليمان الذى ولى البصرة من قبل العباسيين منذ سنة ١٤٥ هـ الى سنة ١٧٢ هـ لها

وذكر ابن خلكان أن قبرها يزار ، وهو بظاهر القدس من شرقيه . على رأس جبل يقال له الطور

لكن ياقوت الحموى ذكر أن هذا القبر ليس قبر رابعة العدوية . إنما قبرها بالبصرة ، أما القبر الذى على جبل القدس فهو قبر رابعة زوجة أحمد بن أبى الحوارى الكاتب ، وقد اشتبه على الناس

قال الغزالى فى الأحياء : ورابعة هذه تشبه فى أهل الشام رابعة العدوية بالبصرة

---

(١) الشن وبهاء: القربة الخلق الصغير

لسنا نعرف شيئا عن نشأة رابعة وحياتها من قبل أن تكون صوفية . فانها لم تولد صوفية بالضرورة . ولم يعن المؤرخون إلا بالجانب الصوفى منها ، وجاء فى دائرة المعارف للبستانى مانصه : (وفى بعض الروايات أنها تابت عن يد ذى النون المصرى . وذلك أنها كانت فى سفينة مع جماعة يشربون الخمر ، فاتفق ركوب ذى النون تلك السفينة لغرض له فى بحر النيل . فطلبت إليه رابعة على سبيل التهكم أن يسمعهم شيئا من غنائه كما أسمعوه . فأنشد :

أحسن من قينة ومزمار   فى غسق الليل نغمة القارى
ياحسنه والجليد يسمعه   بطيب صوت ودمعه جارى
وخده فى التراب منعفر   وقلبه فى محبة البارى
يقول ياسيدى ويا سندى   أشغلنى عنك ثقل أوزارى

وكانت بذلك توبة رابعة على يده)

وعقب على ذلك صاحب دائرة المعارف بقوله : (ولكن يظهر أن هذه القصة مصنوعة لبعد العهد بين ذى النون ورابعة كما يعرف من تاريخ وفاتهما)

وشواهد الوضع فى هذه القصة كثيرة . فأنا لا نعرف أن رابعة العدوية زارت مصر - وإن ابتدعت لها الأساطير قبرا بقرافة الأمام يزار ويتبرك به - والشعر الذى فى الرواية فيه من الغثاثة ومن اللحن ما يقطع الصلة بينه وبين عصر رابعة العدوية . ويظهر أوضح ظهور أنه من شعر العصور المتأخرة

هذا . وقد ذكر ماسنيون فى مجموعة النصوص المتعلقة بتاريخ التصوف ببلاد الأسلام : (أن رابعة خطبها أبوعبيدة عبدالواحد بن زيد مع علو شأنه فهجرته أياما حتى شفع له إليها إخوانه . فلما دخل عليها قالت له : ياشهوانى . أطلب شهوانية مثلك) وذكر فى كتابه فى اصطلاحات الصوفية أن والى البصرة خطبها . وما أظن أن والى البصرة أو عبد الواحد بن زيد كان يرضى أن يخطب امرأة كانت تشرب الخمر فى السفن النيلية ، وتغنى للندمان . وليس فيما بين أيدينا من المراجع مايدل على أن رابعة العدوية كانت متزوجة . بل المأخوذ من الروايات عن حياتها

أنها كانت بعبادتها وحبها لله فى شغل عن الزوج والولد . وقد ردت مرتين من خطبها . وفى مجموع الأستاذ « ماسنيون » وفى غيره : (نظرت رابعة الى رباح وهو يقبل صبيا من أهله ويضمه إليه . فقالت : أتحبه ؟ قال نعم . قالت : ما كنت أحسب أن فى قلبك موضعا فارغا لمحبة غيره تبارك اسمه ، قال فصرخ رباح وسقط مغشيا عليه ، ثم أفاق وهو يمسح العرق من عند وجهه وهو يقول (رحمة منه تعالى بكم ألقاها فى قلوب العباد للأطفال)

وليس من شأن زوجة أو والدة مهما بلغ بها التصوف أن تنكر الحنو على الأطفال

عاشت رابعة العدوية فى القرن الثانى من الهجرة ، وماتت فى أخريات هذا القرن ، كما ترجمه أكثر من كتبوا سيرتها

ويقول ابن خلكان عنها : « كانت من أعيان عصرها . وأخبارها فى الصلاح مشهورة » ويقول عنها صاحب كتاب « مرآة الجنان ، وعبرة اليقظان » الإمام أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ (السيدة الولية ذات المقامات العلية والأحوال الشخصية)

ويقول عنها الأستاذ « ماسنيون » وعن رابعة القيسية ما تعريبه (هاتان الزاهدتان ، وكلتاهما من أهل المذهب البصرى) كان تحمسهما لحياة الزهد مؤديا إلى معالجة أحوال صوفية مختلفة ، وإلى البحث فى فروض دقيقة فى العمليات والعقائد ، ورابعة تعتبر عند الباحثين فى أمور الولاية والأولياء أعظم ولية) .

وعندى أن من التعسف أن ينسب إلي رابعة العدوية وصاحبتها التصدى لمعالجة دقائق المسائل الفقهية والكلامية والصوفية

***

ولقد كان العصر الثانى الهجرى عصر نشأة التصوف ، وعصر بداية تطوره الأول ، إذ نشأ لفظ « الصوفى » عبارة عن العابد الزاهد اللابس للصوف ، ثم صار يدل مع ذلك على العناية بحال القلوب إلى جانب التمسك بالعبادات الظاهرة وتجد فى تاريخ رابعة العدوية ما يدل على حرصها على التحقق بهذه المعانى . فهى

كانت تلبس الصوف . وكانت تستكثر من العبادة ، وكانت من أزهد الناس فى الدنيا روى الشعرانى : أنها كانت تردما أعطاه الناس لها وتقول : « مالى حاجة بالدنيا وذكر صاحب مرآة الجنان ، وابن خلكان عن ابن الجوزى فى كتابه « صفوة الصفوة » بأسناده متصل إلى عبدة بنت أبى شوال ـ وكانت من خيار أماء الله وكانت تخدم رابعة ـ قالت : (كانت رابعة تصلى الليل كله . فاذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر . فكنت أسمعها تقول اذا وثبت من مرقدها ذلك ـ وهى فزعة ـ : يانفس كم تنامين وإلى كم تنامين ؟ يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها الا لصرخة يوم النشور ، وكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت ولما حضرتها الوفاة دعتنى وقالت : ياعبدة لا تؤذنى بموتى أحدا ، وكفنينى فى جبتى هـذه . وهى جبة من شعر كانت تقوم فيها اذا هدأت العيون ، قالت فكفنتها فى تلك الجبة وفى خمار صوف كانت تلبسه ثم رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها ـ فى منامى ـ عليها حلة استبرق ، وخمار من سندس أخضر لم أر قط شيئا أحسن منه . فقلت : يارابعة ، مافعلت بالحلة التى كفناك فيها وخمار الصوف ؟ قالت : إنه والله نزع عنى ، وأبدلت به ماترينه على ، فطويت أكفانى وختم عليها ، ورفعت فى عليين ليكمل لى بها ثوابها يوم القيامة ، فقلت لها ألهذا كنت تعملين أيام الدنيا ؟ فقالت وماهذا عندمارأيت من كرامة الله تعالى لأوليائه ؟ . . قلت فمرينى بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل . قالت عليك بكثرة ذكره ، يوشك أن تغتبطى بذلك فى قبرك)

ويدل ماذكرنا على أنها كانت تلبس الصوف وما إليه من ثياب الشعر ، وأنها كانت كثيرة العبادة منصرفة عن الدنيا

أما اهتمامها بروح العبادة ، ومايحدث فى النفس من آثارها ، فيدل عليه كثير مماروى من أقوالها . كانت تقول : استغفارنا يحتاج الى استغفار . وكانت تقول : ماظهر من أعمالى لاأعده شيئا . ومن وصاياها : « أكتموا حسناتكم كماتكتمون سيئاتكم ، ولعل أظهر ماتميزت به رابعة العدوية كلامها فى الحب . ويقول

« ماسنيون » إنها استعملت كلمة « الحب » فى العشق الألهى ، معتمدة على ماورد فى القرآن . وكان من قبلها يتحرجون من كلمة الحب فى ذلك المقام

والمحبة كما فى كتاب « مدارج السالكين » هى سمة الطائفة ، وعنوان الطريقة ومعقد النسبة . يعنى سمة هذه الطائفة المسافرين إلى ربهم ، وهم الذين قعدوا على الحقائق ، وقعد من سواهم على الرسوم . وعنوان طريقتهم . أى دليلها ، والمحبة تدل على صدق الطالب وأنه من أهل الطريق . ومعقد النسبة . أى النسبة التى بين الرب وبين العبد . فأنه لا نسبة بين الله و بين العبد إلا محض العبودية من العبد والألوهية من الرب ، وليس فى العبد شىء من الألوهية ، ولا فى الرب شىء من العبودية . ومعقد نسبة العبودية هو المحبة ، فالعبودية معقودة بها بحيث متى انحلت المحبة ، انحلت العبودية ، ولاتحد المحبة بحدأوضح منها ، فالحدود لاتزيدها إلاخفاء وجفاء ، فحدهاوجودها ، ولاتوصف المحبة بوصف أظهرمن المحبة . وإنما يتكلم الناس فى أسبابها ، وموجباتها ، وعلاماتها ، وشواهدها ، وثمراتها ، وأحكامها

وهذه المادة تدور فى اللغة على خمسة أشياء :

أحدها — الصفاء والبياض ، ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها — حبب الأسنان

الثانى — العلو والظهور ، ومنه حبب الماء وحبابه ، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد ، وحبب الكأس منه

الثالث — اللزوم والثبات ، ومنه حب البعير وأحب ، إذا برك فلم يقم

الرابع — اللب ، ومنه حبة القلب للبه وداخله ، ومنه الحبة لواحدة الحبوب ، إذ هى أصل الشىء ومادته وقوامه

الخامس — الحفظ والامساك . ومنه حب الماء للوعاء الذى يحفظ فيه ويمسكه ، وفيه معنى الثبوت أيضا . و لاريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة ، فأنها صفاء المودة ، وهيجان إرادات القلب للمحبوب ، وعلوها وظهورها منه . لتعلقها بالمحبوب المراد ، وثبوت إرادة القلب للمحبوب ؛ ولزومها لزوما لايفارقه ،

ولأعطاء المحب محبوبه لبـه ، وأشرف ما عنده وهو قلبـه ، ولاجتماع عزماته وإراداته وهمومه على محبوبه . فاجتمعت فيها المعانى الخمسة .

هذا مايقوله ابن قيم الجوزية فى معنى المحبة ومنزلتها من التصوف

وعند ماكان التصوف فى سذاجته لعهد رابعة . لم يكن الحديث فى أمر المحبة الصوفية طريقا معبدا . وقد تكون رابعة العدوية أول من هتف فى رياض الصوفية بنغمات الحب شعرا ونثرا . وجدير بمولاة آل عتيك — التى كانت من فضلاء عصرها ، وأزكاهم فطرة ، وأسماهم نفسا ، وأشدهم عزوفا عن الدنيا وزخارفها — أن يكون انقطاعها إلى الله قد وجه نفسها الشاعرة وجهة حب إلهى فغنت بأناشيده فى مثل قولها :

أحبك حبين ، حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهـــل له فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ، ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا ، وذاكا

روى هذا الشعر الغزالى فى الأحياء ، ونقله « ماسنيون » أيضا . والذى فى الأحياء « فكشفك لى الحجب حتى أراكا » وفى الأحياء أيضا : قال الثورى لرابعة . ماحقيقة ايمانك ؟ قالت : ماعبدته خوفا من ناره ، ولا حبا لجنته ، فأكون كالأجير السوء . بل عبدته حبا له وشوقا إليه

وذكر أبو القاسم القشيرى فى الرسالة : أنها كانت تقول فى مناجاتها : إلهى أتحرق بالنار قلبا يحبك ؟ فهتف بها مرة هاتف : ماكنا نفعل هذا . فلا تظنى بنا ظن السوء

وفى « عوارف المعارف » للسهروردى . قالت رابعـــة : كل مطيع مستأنس ، وأنشدت :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفــؤاد أنيسى

وكانت تنشد :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هـذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته ... إن المحب لمن يحب يطيع

ومن الظواهر التى تسترعى النظر فى حياة رابعة العدوية . ماعرف من دوام حزنها وبكائها

قال الشعرانى : كانت رضى الله عنها كثيرة البكاء والحزن ، وكانت إذا سمعت ذكر النـار غشى عليها زمانا ، وكان موضع سجودها كهيئة المـاء المستنقع من دموعها

وروى أنهـا كانت تقول « محب الله لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه »

قال المترجمون لها : وقال عندها يوما سفيان الثورى : واحزناه — فقالت : لا تكذب . بل قل : واقلة حزناه . لو كنت محزونا لم يتهيأ لك أن تتنفس . وقيل لرباح : هل طالت بك الليـالى والأيام ؟ قال بم ؟ قيل بالشوق إلى لقاء الله ؛ فسكت ؛ قالت رابعة : « لـكننى نعم »

وليس هذا الحزن العميق فى نفس السيدة رابعة ، إلا مظهر ما كانت تفيض به نفسها الشاعرة من الحب العميق

فالسيدة رابعة هى السابقة إلى وضع قواعد الحب والحزن فى هيكل التصوف الأسلامى ، وهى التى تركت فى الآثار الباقية نفثات صادقة فى التعبير عن محبتها وعن حزنها ، وإن الذى فاض به بعد ذلك الأدب الصوفى من شعر ونثر فى هذين البابين ، لهو نفحة من نفحات السيدة رابعة العدوية إمام العاشقين والمحزونين فى الأسلام .

مصطفى عبد الرازق

مسألة المعرفة

حيرة الفلاسفة فيها قديما وحديثا

للأستاذ الفيلسوف محمد فريد بك وجدى

أمة تمثلت فى فرد ، أو فرد تجمعت فيه أمة . ذلك هو الرجل الذى صنع نفسه بنفسه كما يقول الانكليز . والذي أجاد الصنعة كل الأجادة

تقرأ سيرته فتشعر أنك تقلب فى سفر جامع حافل بالتليد والطريف . وتحس نفسك أمام بنيان شامخ ، تخيرت أسسه من ابنات العلم الصحيح ، واتخذت قواعده من قوائم المعرفة الصحيحة

ذلك هو علامتنا الكبير الأستاذ فريد بك وجدى ، صاحب المؤلفات الشهيرة ، والمجلدات الضخمة ، والموسوعات الذائعة الصيت ، وبحسبك أن تعلم أنه صاحب دائرة معارف القرن العشرين لتعرف أي معجزة أتى بها العصر ، وتفهم أى فخر أكسبه الشرق

تفضل على (المعرفة) وقرائها ، بتعريف المعرفة من ناحيتي العلم والفلسفة فآثرنا وضعه فى هذا المكان على مقالنا الذى يراه القراء فى مكان آخر .

ويجد القارىء صورته على الصفحة التالية . أما مقاله فقد ابتدأه بقوله : —

المحرر

***

فكرت فى شيء أكتبه لهذه المجلة الناشئة فأثار اسمها فى نفسى مسئلة المعرفة فى الفلسفة ، وأذكرها تلك المنازعات العنيفة ، والبحوث المستفيضة التى حدثت حولها قديماً وحديثاً ، فرأيت أن أجمل القول فيها للقارئين . ولعله أول بحث فى هذه المسألة على صفحات مجلة عربية

كيف يعرف عقلنا الأشياء ؟

هـذا سؤال يحسبه الرجل العادى لايستحق البحث ولا المناقشة ولكنه لدى الفلاسفة شطر الفلسفة . بل شطرها الأهم الذى تمركزت فيه كل جهود الأنسان منذ تنبه لتحديد علاقاته بالكون والكونيات

من الأمور البدهية أن الأشياء الخارجية والعقل الذى يدركها ، شيئان متميزان ، بل ومن بعض الوجوه شيئان متناقضان ، ولكن توجد بينهما علاقة ما ، فما هى تلك العلاقة ؟

كيف نفهم أن الأشياء ، وبخاصة الأشياء الخارجة عنا ، المخالفة لطبيعة العقل كل الخلاف ، يدركها هذا العقل وتتمثل فيه ؟

أول ما يتبادر إلى الذهن من حلول هذه المسألة . أن يقال إن العقل ترتسم عليه صور الأشياء كما ترتسم المرئيات على صفحة المرآة ، فيحدث فيه شعور بها وإدراك لها



(صورة العلامة فريد بك وجدى)

هذا حسن . ولكن كيف يمكننا أن نفهم أن تأثيرا يرد على العقل من الخارج ، أو حركة تنطبع منه فى المخ تكون نتيجتها أن يحدث فيه هذا الشعور المفضى إلى الأدراك ؟

سواء أفهمنا هذا الأمر أم جهلناه ، فأنه واقع لا محالة ، ولا سبيل إلى نكرانه . فلنسلم به وإن كنا لم نصل إلى فهمه ، ولننظر فى أمر آخر ، وهو أن هذا الشعور الذى يثيره الشىء الخارجى فى العقل . هل هو صورته الصحيحة فى الواقع ؟

هذا مثار خلاف شديد بين الفلاسفة . فالذين سبقوا منهم عهد سقراط قالوا إن الحواس الأنسانية تعجز عن ضبط كل ما هو واقع خارجها ، فما نحصله كثيرا ما يكون عرضة للتغير ، وموجبا للانخداع . قالوا لا يعقل أن يكون ما نحس به

من لون أوحرارة فى الخارج هو بعينه الموجود منه فى الواقع لا أكثر ولا أقل . فرأى الفلاسفة الأولون من اليونانيين أن يشركوا التفهم فيما يرد على العقل من المدركات . ولكن هـذا التفهم نفسه عمل عقلى ، والعقل كما قررنا لا يرد عليه من الخارج إلا صورة تناسب قواه المحدودة ، فأذا أعمل فيه قوة التفهم فهل يكون مايحصله هو نفس الأمر الواقع ؟

هؤلاء الفلاسفة الأولون لم يقدروا قدر هـذا الاستشكال ، وأخذوا يستخدمون لتحقيق المدركات كل ما يستطيعون استخدامه من وسائل التفهم ، فبنوا على ذلك نظرياتهم ومقرراتهم فى مختلف العلوم . جرى على هـذه السنة هيراقليط وامبيدوكل وأناغزاغور وديموكريت ومن نحا نحوهم ، فكانوا يفترضون النظريات ويحاولون إثباتها معتبريها معبرة عن الواقع المحسوس غير حاسبين حسابا للطبيعة نفسها ، ولقيمة الوسائل التى يتوسلون بها لتقرير حوادثها وموجوداتها

فلما نشأ سقراط نبه على هـذا النقص وقرر أن الفلاسفة الأولين لم يأبهوا إلى أن العـلم الذى يقيمون صرحه هو من عمل العقل ، والعقل لا تتأدى إليه إلا مدركات ناقصة متقلبة ، على حين أن غرض العـلم هو إدراك الحقيقية الكلية الثابتة ثبوتا مطلقا

فلما جاء أفلاطون وتلميذه أرسطو قررا أن الحقيقة الثابتة التى لا يعطينا العقل عنها إلا إدراكا مشوشا ناقصا هى من العالم غير المـادى الذى لا يدركه إلا الوجدان العقلى وحده ، فليطلق عليه إسم المثال أو الصورة أو غيرهما . إلا إنه فى جوهره المدرك العام الذى يصل إليه العقل وحده ثم يعكسه على الخارج . فيكون على موجب هذا المذهب أن ماينا له العقل بوساطة الفكر هو المظهر الصحيح لمـا هو موجود فى الخارج . ومن هنا تتحقق الوحدة بين العقل ومايدركه من أشياء الوجود ، وبذلك تصبح مسئلة المعرفة محلولة على أتم ما يكون .

ولكن لم تلبث هذه النظرية أن اصطدمت بعقبات خطيرة ، فأن الأسباب

التى منعت اعتبار الشعور بالأشياء الخارجية نسخة صحيحة منها ، منعت من إعتبار المدركات صورة صحيحة للحقائق غير المادية . واستحال الأمر إلى معرفة هل هذا الوجدان العقلى الصالح لأدراك الواقع من الأشياء فوق المحسوسة هو غير نتيجة تجريدات عقلية متتابعة تبتعد عن الواقع فى كل درجة من درجاتها وتعرى المعرفة من موضوعها الأصلى . فوجب والحالة هذه البحث عن تفسير آخر لمسألة المعرفة

لما نبغ الفيلسوف أبيقور افترض وجود صور متوسطة للأشياء غاية فى اللطف ولكنها مادية من نوع مادة الروح (والروح مادية فى مذهبه) تشع من الكائنات وتتصل بالعقل ، أو بالعين مباشرة فيدركها . وبأدراكها يكون مدركا للأجسام التى تشع هى منها

ولكن هذا المذهب قد أثار من الشبه أكثر مما أثاره أى مذهب تقدمه فلم يرفع به أحد رأسا

فلما انتهى الأمر إلى الفلاسفة المحدثين من الأوربيين . رفضوا أن يعترفوا بأن للعقل إدراكا مباشرا على الأشياء ، ولا وجدانا تتجلى فيه حقائقها الخارجية بدون وساطة

فأما ديكارت فقد حذف على نحو مافعله أفلاطون وارسطو المعرفة من طريق الحس ، ولكن لاليحل محلها الوجدان العقلى المباشر ، بل قال إن الروح تدرك خاصة التحيز للأجسام بفطرتها على وجه واضح متميز . ولا يستنتج من هذا أنها تدرك الواقع مباشرة ولكنها لعلمها من ناحية أخرى بوجود الله وأنه الخالق للكون والموجد لجميع خصائصه ، فأنها تعلم تبعا لذلك بأن كل ماتدركه من المتحيزات حق لامرية فيه . فهى بذلك تدرك الواقع بدون أن تتخطى ذاتها . فالوجود الخارجى فى حقيقته ليس عنده بشىء غير الفكر الذى يتولد فينا عنه ، وهذا الفكر فى الواقع هو فكر الله نفسه لأنه مستمد منه

وقد تابعه فى ذلك ، مالبرانش وسبينوزا .

أما ليبنتز فقد انفرد عنهما بنظرية هامة . وهى أن الفكر لما كان مرآة للموجودات ، فأن الروح ترى فيه الأشياء بدون أى عمل مباشر من تلك الموجودات

ولكن لما جاء (لوك) أرجع جميع المدركات إلى الشعور. فكان بمذهبه هذا معيدا عهد الفلاسفة اليونانيين القدماء الذين سبقوا سقراط فى الوجود

أما الفيلسوف الألمانى (كانت) فقد قرر أن ليس العقل هو الذى يرتب مدركاته على الأشياء الخارجة عنه ، ولكن تلك الأشياء هى التى تترتب على مقتضاه . وكلنا يعلم بأى تحليل دقيق قرر الفيلسوف الألمانى بأن العقل يضع فى كل معرفة شيئا من جوهره ، حتى فى أصغر المدركات وأحقرها . وليست وظيفة العلم إلا تحديد النواميس الضرورية لقيادة الكون ، وهى بهذا الاعتبار حقيقية وثابتة ، ومسيطرة على حدوث الظواهر الطبيعية

وأما الفيلسوف الألمانى (فيخت) فالواقع المحقق عنده هو الذات المطلقة

وأما (شيلنج) وهو ألمانى كالذى تقدمه ، فقال إن الوجود فكرة تتجسد فى الخارج

وذهب (هيجيل) وهو مواطن لسابقيه إلى أن الطبيعة هى مظهر الفكر المطلق

وزاد عليهم (شوبنهور) وهو من بنى جلدتهم فقال إن الكون ليس إلا صورة متمثلة ، وإذا أمكن أن يقال بأنه موجود باعتبار أنه إرادة فذلك على شرط أن يكون مدركا على مثال القوة المدركة له

أما الفلاسفة المعاصرون لنا فقد انقسموا فى هذه المسئلة إلى فرق كل منها تشايع مذهبا من المذاهب التى بسطناها . فمنهم من يتابعون أفلاطون ، ومنهم من يسايرون ديكارت ، وآخرون يجارون (كانت) . ولديهم أن الوجود ليس بشىء متميز عن الفكر الذى يجب تحديد علاقاته بالمعرفة نفسها . وعليه فليس فى الأمر غير أشكال منوعة من المعرفة يجب تمحيصها وتقدير قيمتها . فحلت عندهم بذلك مسئلة المعرفة محل مسئلة الوجود نفسه ، وأصبحت الفلسفة بحذافيرها نقدا محضا ؟

محمد فريد وجدي

آراء واقتراحات

فى المجتمع المصرى

لسعادة البحاثة أحمد شفيق باشا
وكيل جمعية الرابطة الشرقية

طابع الرجولة الذى يتخيره للشباب ـ المزج بين المدنيتين الشرقية والغربية ـ رأيه فى الأزياء عامة، والطربوش خاصة. الزى الذى يقترحه. رأيه فى النساء والسفور والحجاب. إقتراح عقد مؤتمر للعائلة الإسلامية.

شفيق باشا ، شخصية من أكبر الشخصيات البارزة ، التى أجمع الكل على احترامها ، وليس هذا فى مصر فحسب ، بل وفى عامة البلاد الشرقية ، وحسبه فخرا أنه المؤسس لفكرة الرابطة الشرقية فهو اذا ماحدثنا عن شيء ما ، فانما يحدثنا عن الرأى الصائب ، والفكرة الناضجة.

لهذا . طلبت الى سعادته ، أن يحدثنا ، عن رأيه فى المجتمع المصري والتعديل الذى يرى ادخاله عليه . وعن طابع الرجولة الكاملة الذى يتخيره للشباب . فتفضل علينا بكتابة هذا الحديث الذى بدأه سعادته بقوله :

***

إن لكل من الشرق والغرب تقاليد وعادات يتأثر بها ولا يستطيع عنها نزوعا لما مر عليها من قرون وحقب ، واصطلح عليها من ظروف ومؤثرات . وليس الخير فى أن يأخذ المرء بتقاليد قومه وينطبع بطابعهم جملة . أو يرغب عن تقاليدهم وطابعهم جملة إلى غيرهم .

وليس يخفي علينا أن للشرق تقاليده وعاداته المتناقلة الموروثة . كما أن

للغرب كذلك . وليس يعزب عنا أن من هـذه العادات وتلك التقاليد الحسن والضار . والرجولة الكاملة العاقلة . ليست فى أن ينقاد الشخص إلى تقاليد الشرق أو الغرب انقيادا تاما . ولكنها فى المزج بين تقاليد الاثنين واستصفاء ما هو أنفع وأجدى

وإنه لمن الجمود والتعصب عندى . أن تقف بالمرء فى دائرة ضيقة وأمام أفق محدود ، فلا تدعه يضرب فى طريق التقدم والترقى . ولذلك فأنى من أنصار المزج بين الحضارتين والأخذ بما فى كليهما من الفضائل . فذلك وحده طريق الرجولة الكاملة . وليس يختلف اثنان فى أن الغرب قد سبق الشرق بأشواط بعيدة فى ميدان الحضارة والتقدم . ولذا وجب على الشرقى أن يأخذ عنهم فضائل هـذه الحضارة . يأخذ عنهم العلم المهذب المصفى . والاقتصاد والعناية بالصحة . ومعرفة الواجب والمحافظة على الوقت واستثماره فى النافع ، والثقة المتبادلة والصدق والأمانة . وغير ذلك من الصفات التى جاء بها الشرع الشريف ولا تتنافر وتقاليدنا ، والتى كان من إهمالها ما نحن عليه من الضعف والتأخر . كما يجب علينا أن ننأى بجانبنا عن سيء العادات شرقيا كان أم غربيا .

ويجرنا هذا الموضوع إلى مسألة (الزى) وهى مسألة خطيرة لأنها جزء من القومية . والغريب أنك لا تجد كالشرق عامة وكمصر خاصة ، أمة تختلف فيها الأزياء اختلافا كبيرا . فأنك تكاد تجد لكل طائفة زيا خاصا ، ولباسا يميزها من سائر الطبقات . وعنـدى أن أحسن الأزياء ما كان اقتصاديا صحيا يقدرك على العمل فى راحة ونشاط . ولقـد تسرب إلينا الزى الأفرنجى وذلك عادة سيئة أخذناها عنهم دون تبصر أو تدبر . فأنه علاوة عن أنه يكلفنا الأثمـان الباهظة . ضار بالجسم . فمثلا غطاء الرأس « الطربوش » نفهم أنه مفيد لمن يعيشون فى البلاد الباردة ، لما يكسب رؤوسهم من الدفء . أما فى مصر وجوها صحراوى حار . فأنه لا يقى العينين ولا الرقبة من الشمس . كذلك القميص المنشى و(الكرافات) رباط الرقبة . لا أرى لهما فائدة ، بل بالعكس فأنهما يضايقان الجسم

ولقد ابتكرت زياً كاملا للصيف ، اقتصاديا عمليا صحياً . ولبسته . ولكن بكل أسف لم ترق هذه البدعة فى أعين من رآها لأنها ليس لها من الأناقة ما لغيرها . ونرجو أن يكون هناك فى المستقبل من يرجع إلى هذا الزى بالتنقيح والتجميل حتى يصير مقبولا



سعادة أحمد شفيق باشا
فى الزى الرسمى



صورة لسعادة أحمد شفيق باشا
فى الزى الذى يقترحه

***

أما النساء فأنى أكره منهن الخلاعة الزائدة فى الأزياء . تلك التى تتعارض والقواعد الصحية والمالية والشرع الأسلامى والذوق . ولست من أنصار الحجاب الكلى . وإنما أبيح للمرأة كما يبيح لها الشرع . أن تكون سافرة الوجه واليدين ، لما فى ذلك من المزايا التى أهمها أنها تقلل من لهفة الرجل على المرأة وأن يكون من ذلك حارس لها عن الزلل . لأنها بسفورها تكون معروفة ، وشعورها بمعرفة الناس لها يعصمها عن الخطأ . كما أن السفور يسهل على طالب الزواج أن يرى من يريد أن تكون شريكة له فى حياته كما تراه . ولا يخفى ما فى ذلك من منع المشاكل التى طالما قامت على عدم الرؤية ، ولست مبتدعا . فقد جاءت الشريعة الغراء بذلك . حيث

عرض أحد الصحابة على الرسول أمر زواجه فأوصاه بقوله « أنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما »

وإن ما يبتدعه النساء من أمور « الزار » والعويل فى الجنازات وغيرهما العادات قبيحة يجب العدول عنها

ولست أرى أن يتشبه الرجل بالمرأة وينافسها فيما خصتها به الطبيعة من صفات ومميزات . بل أرى أن يكون رقيقا فى شهامة . وديعا فى رجولة . وإن المرأة ليعجبها من الرجل الرجولة بكامل معناها . لا التأنث والترهل . لأنها لا تريد بجانبها امرأة أخرى تسابقها فى صفاتها .

والتعديل الذى أراه أن نأخذ من الغرب ما لا يتنافى مع المدينة الشرقية . سواء كان من جهة الشرع أو العرف . وأفضل الوسائل عندى : عمل مؤتمر يسمى « مؤتمر العائلة الإسلامية » وفيه يبحث عن العادات الحسنة والضارة ، ثم يقرر الصالح منها ، ويعدل ما يلزم تعديله بحيث لا يختلف مع الشرع والتقاليد الشرقية .

وبعد فأن الغرب برقيه المادى والفكرى لا يستغنى عنه الشرق . لأنه متمم له ولا غنى لأحدهما عن الآخر وإن اختلفت الأديان . وإنه أصبح من مصلحة الإنسانية أن يكونا صديقين متضامنين فى خدمتهما لا خصمين عاملين على شقائهما ؟

أحمد شفيق

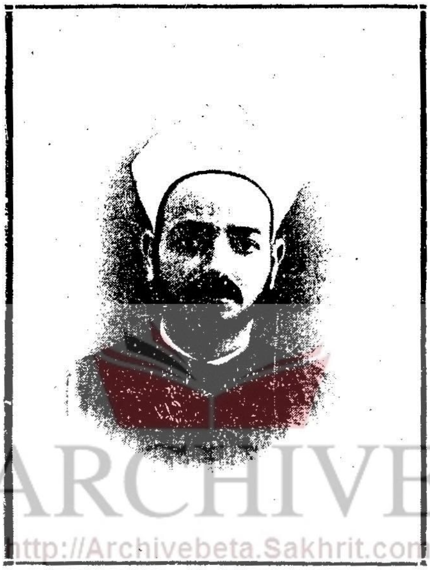
يسر (المعرفة) أن تبلغ سعادة الباشا شكرها الحار على رأيه الصائب وفكرته القيمة . وهى تعلن منذ الآن ، موافقتها على فكرة سعادته فى اقتراح عقد مؤتمر العائلة الأسلامية ، وستدعو جهد طاقتها إلى إخراج الفكرة من حيز القول إلى حيز العمل

كذلك يسرها أن تبلغ الباشا موافقتها التامة على فكرته الخاصة بتوحيد الزى . فأما من حيث شكله وبخاصة غطاء الرأس — الطربوش — فمسألة فيها نظر . وسنعرض فى القريب العاجل إنشاء الله . مجموعة من الآراء والأحاديث تحدث بها إلينا كثير من ذوى الفضل والرأى المسموع عن فكرة سعادة الباشا ؟

المحرر

كيف يستعاد مجد الأسلام ؟

للأستاذ الجليل
السيد محمد الغنيمى التفتازانى



الأستاذ التفتازانى علم من أعلام مصر البارزين ، وشيخ من شيوخها المبجلين . يمتاز بأنه نادرة العصر : فهو نسيج وحده ، كثيرالعمل ، قليل الكلام . وله خدمات للأمة لا تنكر ، وجولات فى خدمة الأسلام والمسلمين لاتجحد ، وليس دفاعه عن (جدار المبكي) بالقدس ، ببعيد عن الأذهان . وقد تفضل علينا بهذا الموضوع الذى يراه القراء بعد ؟

المحرر

***

واعتصموا بحبل الله جميعا و لا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله
عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ؟
صدق الله العظيم

إنه الأمل ؛ نعيش فى ظله ، وننعم بلذة تخيل تحقيقه ، ونحس الحياة تدب فى موضع الموات من مراحله ، بما نبتعث له من قوى كوامن ، و بما نزوده من دأب و كد

ولولا الأمل لهلك الناس

والآن أيها القراء الأعزاء ، هل يستعاد مجد الإسلام ؟

أرانى لو وجهت هذا السؤال إلى المسلمين جميعا لـكان جواب أغلبيتهم لا .

أما أنا فأقول نعم ، قد يستعاد مجد الإسلام لأننى أعيش بالأمل

أنظروا أيها الأخوان فى الأسلام

هاهى بلادكم مظهر سلطان الغاصبين وقد كانت بالأمس مهاد القوة ومصدر الرحمة والعرفان

ها أنتم الآن عبيد لمن كانوا بالأمس لا يستحقون أن يكونوا لـكم عبيدا لأن دينكم السمح سوى بين العبد الرقيق الزنجى وسيده الشريف المنسب

ها أنتم الآن فى جميع بلاد العالم كمريض كله قروح وكل قرحة من داء مختلف ، كلما داويت جرحا سال جرح

ها أنتم الآن أبعد المسلمين عن الأسلام ، لولا أسماؤكم لانقطعت بينكم وبينه كل صلة

ها أنتم الآن أموات يلبسون ثياب الأحياء ، أوهى الهيا كل البشرية خلت من كل المميزات إلا من اللحم والدم

وهل بعد ذلك كله لا يزال فيكم من يقول باستعادة مجد الاسلام ؟ ؟ ؟

نعم أنا أقولها وأعمل دائبا للوصول إليها

نعم أنا موقن أن مجد الإسلام سيعاد للدنيا مرة أخرى ، وسيرى الذين فى قلوبهم مرض أن المسلمين سيغدون أعلام الشرف ومنائر العزة

وسيعود الإسلام إلى بسط لوائه على العالم مرة أخرى

وأى لواء هذا الذى سيخفق باسم الإسلام على العالم ثانية ؟

إنه ليس لواء السيف ، ولا لواء القوة والبطش ، ولا لواء الاسترقاق والاستعباد ، إذ الأسلام براء من ذلك كله

ولـكنه لواء العدل والرحمة

إن أعدى أعداء الأسلام لايستطيع أن يرميه بما يشوه من جماله
وقد لايوجد الآن أعدى للأسلام من المتظاهرين بالأسلام
أيها الأخوان في الأسلام
هل تحبون أن يستعيد الأسلام مجده ؟؟
هل تتوقون إلى تحقيق ذلك الحلم الذهبي الجميل ؟؟؟
كلكم سيقول نعم بلاشك
إن ذلك فى أيديكم
إن ذلك فى مقدور يصل إلى تحقيقه بمجهود يسير كل منكم
إن ذلك يكون و يكون و يكون
ولكن
بعرفان الله

***

أيها الأحباب
اعرفوا الله يعرفكم ، وتقربوا إليه يأخذ بأيديكم وأقيموا حدود الله
يحوطكم بسياج رعايته ويحفظكم
ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون
أيها الأخوان
أين أنتم الآن ؟
إنكم فى مهمه مشوه ، لايستطيع تعرف وجوهكم أحد
لأنكم شوهتم معالمها بالمعاصى ، وقتلتم روح التوحيد فى قلوبكم بالتعويل
على غير الله الذى تكادون تشركون به
وهدمتم حصون الأخلاق بما أسففتم إليه من الموبقات والدنايا

ومزقتم وحدة الأسلام بالانصراف عن علومه وآدابه

ونسيتم القرآن نسيان الكاره وأراكم وقد طبعكم حالكم بطابع الضعف والاستكانة ، أحوج الناس إلى معاودة الحياة قريبة من السعادة

لن تصلوا إلى ذلك إلا اذا صالحتم الله تعالى بعرفان حقوقه

أيها الأخوان

أين أنتم من عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه حين قال

أيها الناس أصلحوا سرائركم تصلح لكم علانيتكم ، وأصلحوا آخرتكم تصلح دنياكم ، وإن امرأ ليس بينه و بين آدم أب حى لمعرق فى الموت

أين أنتم من عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين كان يقول

اللهم إنى غليظ فلينى لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة . اللهم ارزقنى خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين ، اللهم إنى كثير الغفلة والنسيان فألهمنى ذكرك على كل حال وذكر الموت فى كل حين

اللهم ارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم

اللهم إنى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف قصدا من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولاسمعة

واجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدار الآخرة

اللهم إنى ضعيف عن العمل بطاعتك فارزقنى النشاط فيها والقوة عليها ، بالنية الحسنة التى لاتكون إلا بعزتك وتوفيقك

اللهم ثبتنى باليقين والبر والتقوى وذكر المقام بين يديك والحياء منك ، وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى والمحاسبة لنفسى وإصلاح الساعات والحذر من الشبهات ، اللهم ارزقنى التفكير والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك والفهم له (والمعرفة) بمعانيه ، والنظر فى عجائبه والعمل بذلك مابقيت . إنك على كل شيء قدير

بهذا خطب الناس أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وبهذا ناجى ربه من أعماق فؤاده

فماذا كانت النتيجة ؟

كانت أن فتح الله له الأمصار ونشر بعدله الهداية بين الأمم

وأغمض عمر رضى الله عنه جفنيه عند لقاء العزيز الرحيم ، وقد ترك علم الأسلام خفاقا وخلف من آيات عدله ماخلد ذكره على الحقب

إذن اعرفوا الله أيها الأحباب وتقربوا منه بالطاعة

وليؤد كل منا واجبه كما أراده الله وحث عليه رسوله صلى الله عليه وسلم

وإذا علمتم أن أول العلم معرفة الجبار ، وأن آخر العلم تفويض الأمر إليه ، استطعتم أن تعرفوا تماما مبلغ ما لعرفان الواجب من الفضل فى تكوين الأمم

و إذا قام المسلمون بواجبهم نحو دينهم وأوطانهم كمسلمين

استعيد مجد الأسلام

الحنفى بمصر محمد الغنيمى التفتازانى
شيخ السادة الغنيمية

حكم وأمثال

أفضل الاشياء

وفد قس بن ساعدة الأيادى ، على قيصر الروم مرة ما فسأله قيصر : ما أفضل العقل ؟ قال : معرفة المرء بنفسه . قال : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه قال فما أفضل المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه . قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحقوق .

الفلسفة والدين

عند فلاسفة الاسلام

للأستاذ عثمان أمين

ليسانسيه فى الفلسفة والآداب
وعضو بعثة الجامعة المصرية

هذا عنوان لمحاضرة ، ألقاها صديقنا الفاضل ، الأستاذ عثمان أمين ، فى كلية الآداب بقسم الفلسفة .

وقد خصنا الأستاذ بنشرها . فنشكر له ثقته بنا ، وها نحن أولاء ننشرها فى هذا الجزء بنصها وفصها ، ليطلع عليها حضرات إخواننا طلبة الفلسفة بالجامعة ، قبل امتحانهم الأخير . كلل الله مساعيهم بالنجاح ؟

المحرر

***

يقول موريس ولف فى كتابه « تاريخ فلسفة القرون الوسطى » فى معرض الكلام عن فلاسفة العرب : « إن التوفيق بين الفكر الفلسفى و بين العقيدة الأسلامية كان من أكبر ما انصرفت إليه عناية فلاسفة العرب . غير أن أغلبهم يفرق بين دين المستنيرين المبنى على دراسة فلسفية ، و بين دين الدهماء القائم على تأويل القرآن تأويلا حرفيا . و يتصل بهذه العناية المناقشات التى ثارت بين المتكلمين من أهل السنة ، و بين غير واحدة من الفرق المارقة التى لا يسمح المقام بتقصى تاريخها ... وكارا دى فو وغيره يطلقون « المدرسية الأسلامية » (Scolastique musul-mane) على تلك المحاولة التى تبغى التوفيق بين القرآن والفلسفة . ومع ذلك

فلا ينبغى أن يغرب عن البال أن فلاسفة العرب نحوا فى تفسير العالم منحى قائما بذاته مستقلا عن خضوعهم للقرآن » (١)

ونحن إذا تقصينا آراء فلاسفة الأسلام واحداً واحدا فى هذا الصدد ، أعنى بصدد الفلسفة والدين ، لوجدنا مقالة ولف تشبه أن تكون صادقة منطبقة على الواقع فى مجموعها . فقد كان فلاسفة الأسلام مسلمين مؤمنين مخلصين حقا لدينهم يعتقدون اعتقادا يقينيا كما يقول المستشرق « تنمان » إن الأسلام هو أكمل وحى إلهى ، فلئن كانوا قد حاولوا التوفيق بين مذاهب الفلسفة التى يحبونها ، ويكرسون لها حياتهم ، وبين عقائد الأسلام الذى يؤمنون به ويقدسونه ، فلم يكن مرجع ذلك إلى أنهم نصبوا أنفسهم حماة للدين كما يقول ذلك المستشرق ، بل لكى يدرأوا عن أنفسهم شبه الأشعرية وغير الأشعرية مما كانوا يرمونهم بالزندقة والمروق ، لاشتغالهم بالفلسفة وعلوم الأوائل . وحسبنا لكى نفهم هذا ، أن نورد بيتين من الشعر قيلا يوم حكم على الفيلسوف ابن رشد بالنفى من بلاده واضطهاد أنصاره :

نفذ القضاء بأخذ كل مضلل ... متفلسف فى دينه متزندق

بالمنطق اشتغلوا فقيل حقيقة ... إن البلاء موكل بالمنطق

* * *

لقد كان أولئك الفلاسفة يرون للفلسفة مكانها وللدين مكانه . كل منهما يؤدى وظيفته فى الحياة من غير أن يكون بينهما مصادمة ولا نزاع

فالفيلسوف يصل عن طريق العقل إلى إدراك الأمور النظرية ، وهو يلم بطرف من الحقائق العملية . مهمته إذن نظرية : البحث فى العقائد والنظر فى الحقائق العقلية .

أما النبى فهو يدرك فى سبيل الوحى الحقائق العملية ، وطرفا من الحقائق النظرية : وهو يرى فى حالة إشراق النظام الأكمل للكون ، فيحاول أن يهدى الناس إليه . فوظيفته إذن عملية تشريعية أكثر منها نظرية . كانوا يرون أن مهمة النبى

---

(١) تاريخ القرون الوسطى لموريس ولف . جزء أول ص ٢٠٩

هي تحقيق العدل في هذا العالم . ومهمة الفيلسوف هي التشبه بالله في كمال المعرفة . وبهذا المعنى يقول الفارابى فى رسالته « فيما ينبغى أن يقدم قبل تعلم الفلسفة » : وأما الغاية التي يقصد إليها في تعلم الفلسفة فهي معرفة الخالق تعالى وأنه واحد غير متحرك . وأنه العلة الفاعلة لجميع الأشياء ، وأنه المرتب لهذا العالم بجوده وحكمته وعدله . . وأما الأعمال التى يعملها الفيلسوف فهى التشبه بالخالق بمقدار طاقة الأنسان »

والفارابى لا يرى بين الفلسفة والدين تعارضا ولا منافرة . وإذا كان قد وجد بينهما اختلاف ، فليس ذلك إلا فى الظاهر . لأن الشريعة تخاطب الجمهور . والجمهور لا قبل له أن يدرك من أسرار الأمور وبواطنها ما يدركه الفلاسفة بالبراهين الحقيقية . لذلك خاطبهم الشرع بما استطاعوا تصوره وإدراكه .

ونحن نرى هذه الفكرة تنشأ عند الفارابى ولا تلبث أن تنمو وتترعرع مع الزمن عند خلفائه من الفلاسفة حتى تبلغ القمة فى الوضوح والصراحة لدى الفيلسوف ابن رشد .

ولننظر قول الفارابى فى رسالته المسماة « الجمع بين رأيى الحكيمين افلاطون وارسطو » وهى رسالة كتبها وفسر فيها العالم تفسيراً فلسفياً لا يناقض الدين الأسلامى : « والبرهانيات موكولة إلى ذوى الآراء السديدة . والشرعيات موكولة إلى ذوى الألهامات الروحانية . وأعم هذه كلها الشرعيات . وألفاظها خارجة عن مقادير عقول المخاطبين . لذلك لا يؤاخذون بما لا يطيقون تصوره . فأن من تصور فى أمر المبدع أنه جسم ، وأنه يفعل بحركة وزمان . ثم لا يقدر بذهنه على تصور ماهو ألطف من ذلك وأليق به . ومهما توهم أنه غير جسيم وأنه يفعل بلا حركة وزمان . لا يثبت فى ذهنه معنى متصور البتة . وإن أجبر على ذلك زاده غياً وضلالا ، وكان فيما يتصوره و يعتقده معذورا مصيبا ، ثم يقدر بذهنه أنه غير جسيم وأن فعله بلا حركة ، غير أنه لا يقدر على تصور أنه لا فى مكان ، وإن أجبر على ذلك وكلف تصوره تبلد ، فأنه يترك على حاله ولا يساق إلى غيرها . وكذلك

لا يقدر الجمهور على معرفة شيء يحدث لا عن شيء ، ويفسد لا إلى شيء . فلذلك ماقد خوطبوا بما قدروا على تصوره وإدراكه وتفهمه . لا يجوز أن ينسب شيء من ذلك فيما هو فى موضعه إلى الخطأ والوهى . بل كل ذلك صواب مستقيم . فطرق البراهين المقنعة المستقيمة العجيبة النفع منشأها عند أصحاب الشرائع الذين عوضوا بالأبداع الوحى والألهامات »

ونرى الفارابى يعرض فى هذه الرسالة أيضا لآراء افلاطون وارسطو فى مسائل عدة ، و يحاول أن يبين أنه لا خلاف فيما بين آرائهما من جهة ، ولا بين آرائهما و بين العقيدة الأسلامية من جهة أخرى . وأخيرا يتناول فيها ثلاث مسائل مما كثر حولها التنازع بين أهل النظر العقلى وأصحاب النظر الشرعى . و يشير إلى مواضع الشبه ومداخل الشكوك فيها وهى : قدم العالم ، و إثبات الصانع ، والثواب والعقاب . و يحاول أن يثبت اتفاق أفلاطون وارسطو على أن العالم محدث وليس بقديم ، واتفاقهما على أنه لابد له من صانع ، و ينفى عنهما شبهة الاعتقاد بنفى الثواب والعقاب ، ويستدل على أن ارسطو كان يرى أن الجزاء واجب فى الطبيعة برسالة كتبها ارسطو نفسه إلى والدة الاسكندر حين بلغها نعيه وجزعت عليه . . .

* * *

أما ابن سينا فكلامه فى هذا المعنى أصرح وأجلى . فبعد أن أثبت الحاجة إلى وجود نبي يخاطب الناس لهدايتهم وإقامة العدل بينهم ويسن للناس فى أمور معاشهم سننا بأمر الله تعالى ، ووحيه ، قال فيكون الأصل فيما يسنه تعريفه إياهم أن لهما صانعا واحدا قادرا ، وأنه عالم بالسر والعلانية ، وأنه من حقه أن يطاع أمره ، وأنه يجب أن يكون الأمر لمن له الخلق ، وأنه قد أعد لمن أطاعه المعاد المسعد ، ولمن عصاه المعاد المشقى ، حتى يتلقى الجمهور رسمه المنزل على لسانه من الأله والملائكة بالسمع والطاعة . ولا ينبغى له أن يشغلهم بشيء من معرفة الله تعالى فوق أنه واحد حق لاشبيه له . فأما أن يتعدى بهم إلى تكليفهم

أن يصدقوا بوجوده وهو غـير مشار إليه فى مكان فلا ينقسم بالقول ، ولا هو خارج العالم ولا داخله ، ولا شيء من هـــذا الجنس ـ فقد عظم عليهم الشغل وشوش فيما بين أيديهم الدين ، وأوقعهم فيما لايخلص عنـه إلا من كان الموفق الذى يشذ وجوده ويندر كونه . فأنه لايمكنهم أن يتصوروا هذه الأحوال على وجهها إلا بكد . وإنمـا يمكن القليل منهم أن يتصور حقيقة هذا التوحيد والتنزيه ، فـلا يلبثون أن يكذبوا بمثل هذا الوجود ، أو يقعوا فى الشارع ، و ينصرفوا إلى المباحثات والمقايسات التى تصدهم عن أعمالهم البدنية ، وربمـا أوقعتهم فى آراء مخالفة لصلاح المدينة ومنافية لواجب الحق . فكثرت فيهم الشكوك والشبه وصعب الأمر على اللسان فى ضبطهم . فمـا كل متيسر له فى الحـكمة الألهية . ولا يصح بحال أن يظهر أن عنده حقيقة يكتمها عن العامة . بل لا يجب أن يرخص فى التعريض بشيء من الأشياء التى هى عندهم عظيمة وجليلة ، ويلقى إليهم منه هذا القدر ، أعنى أنه لانظير له ولا شبيه ولاشريك . وكذلك يجب أن يقرر عندهم أمر المعاد على وجـه يتصورون كيفيته وتسكن إليه نفوسهم و يضرب للسعادة والشقاوة أمثالا ممـا يفهمونه و يتصورونه .

أما الحق فى ذلك فلا يلوح لهم منه إلا أمرا مجملا : وهو أن ذلك شيء لاعين رأته ولا أذن سمعته . . . . ولا بأس أن يشتمل خطابه على رموز و إشارات ليستدعى المستعدين بالجبلة للنظر إلى البحث الحكمى فى العبادات ومنفعتها فى الدنيا والآخرة . . . » (١)

و بعد هـــذا يمضى ابن سينا منها إلى ماينبغى أن يسن النبي للناس من فروض العبادات ووسائل القربى إلى الله . ثم يقول : « فهذه الأحوال (أحوال العبادات والقربى) ينتفع بها العامة فى رسوخ ذكر الله ــ عز اسمه ــ فى أنفسهم فيدوم لهم التشبث بالسنن والشرائع بسبب ذلك و إن لم يمكن لهم مثل هذه

(١) النجاة لابن سينا صفحة ٥٠٠

المذكرات تناسوا جميع ذلك مع انقراض قرن أو قرنين . و ينفعهم أيضا فى المعاد منفعة عظيمة فيما ينزه به أنفسهم على ماعرفته . وأما الخاصة فأكثر منفعة هذه الاشياء إياهم فى المعاد . فقد قررنا حال المعاد الحقيقى ، وأثبتنا أن السعادة فى الآخرة مكتسبة بتنزيه النفس ، وتنزيه النفس تبعيدها عن الهيئات البدنية المضادة لأسباب السعادة »

فظاهر من كلام ابن سينا أنه يقسم الناس إزاء الدين فريقين : خاصة وعامة . فالخاصة هم أهل النظر فى العقائد والعبادات . أما العامة فينبغى ألا يلقى إليهم من ذلك إلا ما تقبله أفهامهم وتتسع له مداركهم خشية أن تضطرب آراؤهم وتتزلزل عقائدهم

فمقصد الدين هداية الناس لبلوغ السعادة فى الدارين ، ومقصد الفلسفة تأهيل الفيلسوف لدرك « السعادة الحقيقية » . ولكن ماهى هذه السعادة الحقيقية التى ينشدها الفيلسوف وكيف السبيل إلى تحقيقها ؟

يرى ابن سينا أنه للوصول إلى « السعادة الحقيقية » ينبغى أن يتوفر فى حق الفيلسوف ركنان . أحدهما نظرى والآخر عملى . أما الركن النظرى فهو كمال المعرفة كما رأينا لدى الفارابى . ولكن كمال المعرفة عند ابن سينا على ضروب : أحدها : تصور المبادىء المفارقة تصورا حقيقيا والتصديق بها تصديقا يقينيا . والثانى : معرفة العلل الغائية للأمور الواقعة فى الحركات الكلية دون الجزئية . الثالث : معرفة النظام الكلى و الترتيب الذى عليه الكائنات من المبدأ الأول إلى أخس الموجودات .

الرابع : تصور العناية الألهية وكيفيتها ـ ثم لابد أخيرا من توثيق العلاقة مع العالم الآخر والشوق إليه .

هذا هو الركن النظرى فى تحقيق السعادة

أما الركن العملى فتنزيه النفس أى تبعيدها عن الهيئات البدنية المضادة لأسباب السعادة . وهذا التنزيه يحصل بأخلاق وملكات . والأخلاق والملكات

تـكتسب بأفعال من شأنها أن تصرف النفس عن البدن والحس ، وتديم تذكيرها المعدن الذى لهـا ، حتى تزكو وتشتاق إلى كمالها وتطلبه . فأذا كانت كثيرة الرجوع إلى ذاتها لم تنفعل ولم تتأثر من الأحوال البدنية . و إن دامت هـذه الأفعال من الأنسان استفاد ملـكة الالتفات إلى جهة الحق والأعراض عن الباطل ، وصار شديد الاستعداد للتخلص إلى السعادة بعـد مفارقة البدن .

***

ولنخط الآن إلى الغزالى ذلك الجبار الذى أمعن فى الفلسفة طعنا وتجريحا ونادى بوجوب زجر كل من يخوض فى علومها بحجة أن بعض الذين مارسوها ركبوا شططا وانحرفوا عن جادة العقيدة الشرعية (١)

ولسنا نفهم كيف ساغ للغزالى أن يطعن على الفلسفة ويرميها بتشويش آراء العوام وهدم معتقداتهم الدينية . مع أن العامة هم أبعد الناس عن الاطلاع على آراء الفلاسفة والوقوف على دقائق مباحثهم . ومع أن الفلاسفة أنفسهم ماطمعوا يوما فى استرضاء الجماهير ولا النزول إلى مجادلة العوام والجهال . ولـكنهم توخوا من مبدأ الأمر أن يخاطبوا طبقة الخواص والعلماء ، على ماأوضحنا بيانه فيما سبق من القول :

وليت شعرى أكان الغزالى منطقيا مع نفسه فى الجهر بهذه الصيحة ضد الفلاسفة ؟ مع أننا نراه يقول فى مفتتح كتابه « إلجام العوام عن علم الكلام » مانصه : « أمابعـد فقد سألتنى ـ أرشدك الله ـ عن الأخبار الموهمة للتشبيه عند الرعاع والجهال من الحشوية الضلال ، حيث اعتقدوا فى الله وصفاته ما يتعالى و يتقدس عنـه من الصورة واليد والقدم والنزول والانتقال والجلوس على العرش والاستقرار وما يجرى مجراه . . . » ثم يقول بعدذلك « وحقيقة مذهب السلف ـ وهو الحق عندنا ـ أن كل من بلغه حديث من هـذه الأحاديث من

(١) راجع المنقذ من الضلال للغزالى : فصل فى أقسام علوم الفلاسفة

عوام الخلق ، يجب عليه فيه سبعة أمور : التقديس ثم التصديق ثم الاعتراف بالعجز ثم السكوت ثم الأمساك ثم الكف ثم التسليم لأهل المعرفة . . »

أليس هذا هو عين مايقول به الفلاسفة ، على ما رأينا ، من وجوب صرف العامة عن البحث فى حقائق أمور الدين ووجوب عدم التصريح لهم بما يعسر عليهم إدراكه ، بل يترك ذلك إلى أهل المعرفة والعلماء ؟

الحق أنه إذا كان هناك من هو أولى باللوم والمؤاخذة لتصريحه فى بعض كتبه بما لايجب التصريح به للجمهور ، فهو الغزالى نفسه ومعه فريق من المتكلمين .

***

أما الفيلسوف الأندلسى ابن طفيل فما علينا إلا أن نقرأ قصته الفلسفية الرائعة التى سماها « حى بن يقظان » فنجد ذلك المعنى الذى أشرنا إليه ممثلا فيها أبلغ تمثيل . وخلاصة هذا الرأى عنده أن الحقيقة المجردة الخالصة لايحسن أن يصرح بها للعامة المكبلين فى أغلال الحواس . وأنه لأجل النفاذ إلى تلك الأذهان الجامدة والتأثير على هذه الأرادات العاتية . اقتضت الحكمة أن تحاط الحقيقة بالرموز والأشارات . وذلك شأن الأديان المنزلة .

***

أما ابن رشد فقد كتب فى هذا الموضوع وأسهب . كتب فيه رسالتيه « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » و « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة » . وهو يبين فى « فصل المقال » أن الحكمة تطابق الشرع ولاتخالفه . فأن الشرع قد أوجب النظر فى الموجودات واعتبارها . ولما كان الاعتبار ليس شيئا أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه ، وهذا هو القياس العقلى ـ فوجب أن نجعل نظرنا فى الوجود بالقياس العقلى . وإذا كان قد عرض لصناعة القياس العقلى سوء استعمال من قبل بعض الناس كما عرض لغيرها من الصناعات ، فليس معنى هذا أن يصدف سائر الناس عنها ،

أو أن ينهوا عن ممارستها . وليس يلزم كما يقول ابن رشد (من أنه إن غوى غاو بالنظر فيها وزل زال ، إما من قبل نقص فطرته ، أومن قبـل سوء ترتيب نظره فيها ، أو من قبل غلبة شهواته عليه ، أو أنه لم يجد معلما يرشده إلى فهم مافيها ، أو من قبل اجتماع هذه الأسـباب فيه أو أكثر من واحد منها ـ أن نمنعها عن الذى هو أهل للنظر فيها . فأن هذا النحو من الضرر الداخلى من قبلها ، هو شىء لحقها بالعرض لا بالذات . وليس يجب فيما كان نافعا بطباعه وذاته أن يترك لمـكان مضرة موجودة فيه بالعرض)

إذن فالشرع يدعو إلى النظر البرهانى . ولـكن كيف السبيل إذا أدانا النظر البرهانى إلى نحو من المعرفة نخالف لظاهر مانطق به الشرع ؟

هنا يقرر ابن رشد أنه إن أدى النظر البرهانى إلى نحو من المعرفة بموجود ما فلا يخلو ذلك الموجود أن يكون قد سكت عنه فى الشرع أو عرف به

فأذا كان مما سكت عنه فلا تعارض هناك ، وهو بمنزلة ماسكت عنه من الأحكام فاستنبطها الفقيه بالقياس الشرعى .

و إن كانت الشريعة نطقت به فلا يخلو ظاهر النطق أن يكون موافقا لما أدى اليه البرهان فيه أو مخالفا . فأن كان موافقا فلا قول هناك . و إن كان مخالفا طلب هناك تأويله . والتأويل معناه إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل فى ذلك بعادة لسان العرب فى التجوز من تسمية الشىء بشبيهه أو سببه أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من الأشياء التى عودت فى تعريف أصناف الـكلام المجازى

وابن رشد يقطع قطعا بأن كل ما أدى إليـه البرهان وخالفه ظاهر الشرع فذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربى . على أنه ليس ينبغى أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها ، ولاأن تخرج كلها من ظاهرها بالتأويل فللتأويل أحكام يجب مراعاتها .

والشريعة إذن قسمان : ظاهر وباطن . وسبب ذلك اختلاف فطر الناس

وتباين قرائحهم فى التصديق . والظاهر هو فرض الجمهور . أما المؤول فهو فرض العلماء ولا يصح أن يفصح بتأويله للجمهور : إذ يجب ألا يعلم بالباطن من ليس من أهل العلم به ولا يقدر على فهمه ، كما روى البخارى عن على كرم الله وجهه أنه قال : « حدثوا الناس بما يعرفون . أتريدون أن يكذب الله ورسوله » . ولهذا ينبغى ألا تثبت التأويلات إلا فى كتب البراهين ، لأنها إذا كانت فى كتب البراهين لم يصل إليها إلا من هو أهل البرهان وهم الخاصة والعلماء . وأما إذا ثبتت فى غير كتب البرهان واستعمل فيها الطرق الشعرية والخطابية أو الجدلية فخطأ على الشرع وعلى الفلسفة . ومن أجل هذا تعيب ابن رشد على الغزالي أنه صرح بالحكمة كلها للجمهور وبآراء الحكماء على ما أداه إليه فهمه فى كتابه (مقاصد الفلاسفة) . وكان الصواب أن يقر الشرع على ظاهره وألا يصرح للجمهور بالجمع بينه و بين الحكمة . لأن التصريح بذلك هو تصريح بنتاج الحكمة لهم دون أن يكون عندهم برهان عليها . وهذا غير جائز : لأن المصرح إليه لا يكون حينئذ لا مع العلماء الجامعين بين الشرع والعقل ، ولا مع الجمهور المتبعين لظاهر الشرع . وإذن فالغزالى فى نظر ابن رشد قد أخل فى كتبه بالشرع والحكمة جميعا : أخل بالشرع لأفصاحه فيها بالتأويل الذى لا يجب الأفصاح به . وأخل بالحكمة لأنه أفصح بمعان يجب ألا يصرح بها إلا فى كتب البرهان .

فأذا رأى قوم من المنتسبين إلى الشرع أو إلى الحكمة أن الحكمة مخالفة للشريعة فليعلموا أنها ليست تخالفها . وليعرف كل واحد من الفريقين أنه لم يقف على كنهها بالحقيقة . . . ثم يقول ابن رشد بعد هذا « إن الرأى فى الشريعة الذى أعتقد مخالفته للحكمة فهو رأى إما مبتدع فى الشريعة ليس من أصلها . و إما هو رأى خطأ فى الحكمة أعنى أنه تأويل خطأ عليها » كما عرض فى مسألة علم الجزئيات وفى غيرها من المسائل . والمتأمل لأصول الشريعة يجدها أشد مطابقة للحكمة مما أول منها . مثال ذلك ما وقع فى مسألة القضاء والقدر فأن الشرع يوافق فيها العقل مع أن المتأولين قد خرجوا بها عن مقصد الشرع . وقد وقعوا فى حيرة حين

رأوا تعارضا فى الأدلة السمعية وتعارضا فى الأدلة العقلية :

بعض الأدلة تدل على أن الانسان مجبور، وبعضها على أنه مخير. لكن ابن رشد يرى فى التوفيق بين هذا التعارض فى المعقول والمسموع - يرى رأيا يتفق مع الشرع ولايخالف حكم العقل، فعنده أن الظاهر من مقصد الشرع ليس التفريق بين هذين الاعتقادين أعنى الجبر والاختيار، وإنما قصده الجمع بينهما على التوسط : وذلك أن الله خلق لنا قوى نقدر بها على اكتساب أفعالنا . لكن الاكتساب لتلك الأفعال لا يتم إلا بمواتاة الأسباب التى سخرها الله من خارج وزوال العوائق عنها . فأرادتنا إذن مقيدة بالأمور التى من خارج ومربوطة بها، بحيث أن الأفعال المنسوبة إلينا يتم فعلها بأرادتنا وبموافقة الأفعال التى من خارج لها . وهى المعبر عنها « بقدر الله » ولما كانت الأسباب التى من خارج تجرى على نظام محدود وترتيب مقدر ، فوجب أن تكون أفعالنا تجرى على نظام محدود، أعنى أنها توجد فى أوقات محدودة وبمقدار محدود . وليس هناك ارتباط بين أفعالنا والأسباب التى من خارج فحسب ، بل بينها وبين الأسباب التى خلقها الله تعالى فى داخل أبداننا . والنظام المحدود الذى فى الأسباب الداخلة والخارجة هو « القضاء والقدر » . وعلم الله بهذه الأسباب وبما يلزم عنها هو العلة فى وجود هذه الأسباب . لذلك كان الله هو العالم بالغيب وحده . وكذلك استطاع ابن رشد أن يبين كيف أن لنا اكتسابا فى أفعالنا ، وكيف أن جميع مكتسباتنا بقضاء وقدر سابق . وذلك فى نظر ابن رشد هو الجمع الذى قصده الشرع فى مسألة القضاء والقدر . وعلى هذا النحو جرى الفيلسوف فى عدة مسائل أخرى تمس الفلسفة والدين .

ولابن رشد نظرية فى التأويل ، يبحث فيها فيما يجوز تأويله فى الشرع وما لايجوز . فيرى أن المعانى الموجودة فى الشرع صنفان : أولهما : أن يكون المعنى الذى صرح به هو بعينه الموجود بنفسه . وهذا الصنف لايقبل التأويل ، وتأويله خطأ من غير شك . الثانى : ألايكون المعنى المصرح به فى الشرع هو المعنى الموجود وإنما أخذ بدله على جهة التمثيل . وهذا الصنف على أربعة أقسام :

(١) فأما أن يكون المعنى الذى صرح بمثاله لا يعلم وجوده إلا بمقاييس بعيدة مركبة تتعلم فى زمان طويل ، وصنائع جمة . وليس يمكن أن تقبلها إلا الفطر الفائقة . وكذلك لا يعلم لماذا هو مثال إلا بعلم بعيد . وهذا القسم تأويله خاص بالراسخين فى العلم ولا يجوز التصريح به لغير الراسخين .

(٢) أن يعلم كونه مثالا ، ولماذا هو مثال — الأمران يعلمان جميعا بعلم قريب . وهذا تأويله هو المقصود والتصريح به واجب .

(٣) أن يعلم أنه مثال لشىء بعلم قريب . و يعلم لماذا هو مثال بعلم بعيد مثل قوله عليه السلام (الحجر الأسود يمين الله فى الأرض) ؛ فهذا لم يأت التمثيل فيه من أجل بعده عن أفهام الجمهور ، وإنما أتى فيه التمثيل لتحريك النفوس إليه . والواجب فيه ألا يتأوله إلا الخواص والعلماء . ويقال للذين شعروا أنه مثال ، ولم يكونوا من أهل العلم لماذا هو مثال ؟ إما أنه من المتشابه الذى يعلمه العلماء الراسخون . و إما أن ينقل التمثيل فيه لهم إلى ما هو أقرب من معارفهم أنه مثال .

(٤) أن يكون كونه مثالا معلوما بعلم بعيد إلا إنه إذا سلم أنه مثال ظهر عن قريب لماذا هو مثال ؟ وهذا القسم فيه نظر : فيحتمل أن يقال إن الأولى ترك التأويل فى حق من لا يدركه أنه مثال إلا بشبهه ، و يدركون أنه إن كان مثالا فلماذا هو مثال ؟ و يحتمل أن يطلق لهم التأويل لقوة الشبه الذى بين ذلك الشىء وذلك الممثل به .

لكن ابن رشد يرى بأن القسمين الأخيرين متى أبيح التأويل فيهما تولدت منهما اعتقادات غريبة و بعيدة عن ظاهر الشريعة . وأنه لما كان قد تسلط على التأويل فى هذه الشريعة من لم يتميز له هذه المواضع ، ولا تميز له الصنف من الناس الذين يجوز التأويل فى حقهم ، اضطرب الأمر فيها ، وحدث فيهم فرق متباينة يكفر بعضهم بعضا . . . ومن هنا اختلفوا فقال قوم أول الواجبات الإيمان وقال آخرون بل أول الواجبات النظر ، فلم يعرفوا أى الطرق الثلاثة (يعنى الخطابية والجدلية والبرهانية) هى المشتركة للجميع والتى دعا الشرع من أبوابها جميع

الناس . وظنوا أن ذلك طريق واحد فأخطأوا مقصد الشارع . مع أنه إذا قوبل الكتاب العزيز وجد فيه الطرق الثلاثة « فمن حرفها بتأويل لا يكون ظاهرا بنفسه ، أو أظهر منها للجميع وذلك شيء غير موجود ، فقد أبطل حكمتها »

فأذا تقرر هـذا وكنا نعتقد معشر المسلمين أن ديننا حق ، وأنه يدعو إلى النظر المؤدى إلى الحق ، فأنا نعلم قطعا أن النظر البرهانى لا يؤدى إلى مخالفة ماورد به الشرع . لأن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له .

والخلاصة أن ابن رشد يرى أن الحكمة هى صاحبة الشريعة بل هما كما يمثلهما بعبارته الجذابة « أختان رضيعتان » .

***

والواقع أن فلاسفة الأسلام جميعا ـ وعلى رغم الغزالى ـ كانوا يشعرون شعورا عميقا بجلال الفلسفة وشرف مكانها من العلوم . وكانوا من ناحية أخرى يقدرون حق التقدير ماللدين من نفع اجتماعى عظيم الخطر ، ويشعرون شعورا قويا بأنه من أشد الأمور لزوما للجمهور .

فلم يكونوا يرون لذلك بين الدين والفلسفة خصومة ولا نضالا . وإنمـا هما يمثلان مرحلتين من مراحل الفكر الأنسانى : كلاهما له مجاله الخاص ، وكلاهما يؤدى فى الحياة مهمة ليس عنها غناء . مهمة الشرع عملية تتناول تبرير أحوال الناس على ماتنتظم به أسباب معاشهم ومصالح معادهم . ومهمة الفلسفة نظرية تتعرض للبحث فى حقائق الأمور وأسرار العقائد . ثم إن الشريعة تخاطب جمهور الناس وكافتهم فى حين أن الفلسفة بطبيعتها لا يمكن أن تقصد بدعوتها إلا إلى الخاصة الممتازين أو أهل (الفطر الفائقة) على حد تعبير ابن رشد .

والدين يلقى حجابا على بعض الحقائق ، فتصبح مقبولة سائغة لدى العوام ، من أن يغفل تنبيه الخواص للفحص عن الخفى المستور . . .

والفلسفة هى التى تهتك بنور الفكر ذلك الحجاب ، فيسفر لها وجه الحقيقة . وقد يجعل الفيلسوف من معرفة هذه الحقيقة عبادة لله وزلفى .

وفرق بين موقف الفلسفة من الدين عند فلاسفة الإسلام، و بين موقفها منه عند فلاسفة المسيحية فى القرون الوسطى .

لم يكن للفلسفة فى عهود المسيحية الوسطى سلطان مستقل عن غيرها، ولم يكن ثمة مبرر للاشتغال بها إلا باعتبار ما تستطيع أن تؤدى إلى الكنيسة من خدمات، و بالقدر الذى كانت تصلح به أن تتخذ سلاحا للذب عن الدين .

كان الدين حينئذ هو الغاية ولم تكن الفلسفة إزاءه إلا وسيلة .

أما فلاسفة الإسلام، فكانت نظرتهم إلى الفلسفة أسمى وأرفع : -

كانوا يرون لها مكانها الأول الذى لا ينازع، وسلطانها المعتبر الذى لا تستمده إلا من جلال ذاتها .

نعم إنها فى يقينهم لا تناكر الدين ولا تبغضه، غير أنها مع هذا ليست له تابعة ولا خادمة . بل إنها لتبدو فى الغالب تلك السيدة الآمرة التى يملؤها الشعور بشرفها وتفوقها على أترابها .

أليس فى التفريق الذى رأيناه بين طائفتى الخاصة والعامة، ما يشعرنا بهذه السيادة ؟ ألم ينص الفارابى نفسه على أن أول شرط فى رئيس (المدينة الفاضلة) أن يكون بعد كبر السن حكيما ؟

لعلنا إذا قلنا بعد هذا إن موقف الفلسفة من الدين فى نظرهم يشبه أن يكون موقف الاستقراطية المفكرة المستنيرة من الديموقراطية الشعبية المغمورة، لم نكن فى قولنا متجنين ولا مسرفين ؟

عثمان أمين

نشكر للأستاذ عنايته الفائقة التى تجلت فى هذا البحث، وكنا نود لو وضح رأيه عن الغزالى توضيحا أكثر من هذا، لنستطيع الحكم على ماقرره عنه، حكما صحيحا لا شائبة فيه، فلعله يتفضل بتبيان ذلك وله الشكر مرة أخرى ؟

المحرر

نظرات المحرر

أخلاقنا وأخلاقهم

ليس من شك مطلقا ، فى أن الأخلاق عماد الأمم ، والحجر الأساسى فى تكوينها ، والدعامة القوية فى بنيانها

بل هى العقيدة التى تربط أفراد الأمة بعضهم ببعض ، والصلة التى تجمعهم إلى عقد واحد مثله مثل البنيان المرصوص يشد بعضه بعضا

والمرء بطبعه شديد الحاجة إلى التخلق بالخلق الكريم والتعلق بأهدابه ، وذلك لتتم له سعادته ، وتتحقق له هويته . وأقل الفوائد التى يجنيها الأنسان من الخلق الكريم احترام المجتمع له

وليس شرط الأخلاق توفر العلم ، بل شرط العلم توفر الأخلاق . وكم من أمة نسبة المتعلمين فيها ، أقل بكثير من نسبة المتعلمين عندنا ، ولكنها بكل أسف أرقى أخلاقا منا بكثير

تلك هى الحقيقة ، نقررها وإن كانت مرة . ولخير لى أن أصف مرضى للطبيب فيحسن تشخيصه ، من أن أكتمه العلة فأروح ضحية كتمانها

وللتدليل على صحة ماتقدم ، أدعو القارئ ليدخل أى مجتمع من مجتمعاتنا المصرية ، ثم يحدثنا عما يجده ، ولن يجده إلا سوقا عامة ، اختلط فيه الحابل بالنابل ، أو (كرنفالا) لايستطاع تمييز لونه أو تعرف أشخاصه ، أو (حماما بلا ماء) لايمكن لأنسان ما توضيح أصواته أوفهم أحاديثه . وإذن فالفائدة الأدبية بعيدة التحقيق ، وتمييز النافع من الضار بعيد الحصول . ثم نتمشدق بعد هذا كله بألفاظ رنانة ، وكلمات طنانة كالمدنية القديمة ، والتاريخ المجيد ، والدم الفرعونى . . الخ

مما نحفظه عن ظهر قلب لنرصه رصا بمناسبة و بغير مناسبة

ثم تعال معى لندخل مجتمعا لأحدى جاليات الأمم الصغيرة ، بل لأصغر جالية فيها . ليس لها تاريخنا القديم ، وذلك الجدول المملوء بالألفاظ المعروفة . . .

فهل ترى إلا مجتمعا توفرت فيه كل مايجب أن تكون عليه المجتمعات من هدوء ، وسكون ، تتخللهما أحاديث اجتماعية مفيدة ؛ أومواضيع أدبية طريفة ، أوبحوث علمية جليلة ، أومحافل سمر بريئة ، أو نكات راقية وفكاهات عالية على أقل تقدير ؟

***

وتعال معى نتامل المارين فى الطرقات . هل ترى منا إلا كهلا متصابا يخالس النساء النظر . أوشابا يقتفى أثر الفتيات يترسم خطاهن و ينشدهن على طول الطريق من ألفاظ الأغراء ، وعبارات القحة ماتندى له جبين الفضيلة خجلا ؟ . ومادرى الكهل أن تلك التى يخالسها النظر قد تكون ابنته ، وماذا يدرى الشاب أن تلك الفتاة قد تكون أخته

ثم تعال نتأمل المارين منهم . هل ترى إلا رجلا أو شابا يسرع الخطوات و ينهب الأرض نهباً ، سعيا و راء قوت يحصله أومعهد يطلبه ؟

بمثل هذه الأخلاق العالية ، تتقدم الأمم ، و يتألق نجمها حتى يشارف كبد السماء

وأما تلك الأخلاق المنحطة فهى نذير الفشل ودليل الفناء . تلك أخلاق لاتجدها فى البلاد المتوحشة ، ولا فى الشعوب المتأخرة ، فضلا عن شعب مثقف مستنير كشعبنا المصرى

هنا . وهنا فقط ، يحلو لى الترنم بكلمات المدنية القديمة ، والفرعونية العتيدة ، والمجد التالد . . . إلى آخر عبارات الجدول المعروف . لأستثير حمية أبناء جلدتى ونفوسهم بها . فلعل كلمتى لا تذهب هباء منثورا .

فى الشعر المنثور

بين طائر وشاعر

للأستاذ فؤاد صروف

رئيس تحرير المقتطف

هذا عنوان لرسالة كتبها الأستاذ صروف — أيام كان يطلب العلم — إلى أحد أساتذته الشعراء . يهنئه بزواجه فى سن الخامسه والأربعين . ولم يسبق نشرها.

والرسالة تدل على شاعرية قويه ، ما كنا — والحق يقال — نعهدها فى الأستاذ من قبل - إذ المعروف عنه ، أنه منصرف إلى العلم بكلياته وجزئياته .

وقد تكرم فأهدانا بها . ونحن نشكر له هـــديته ، وننشرها معجبين بأدبه الرائع ، ولتكون صلة محبة ووداد بين المعرفة والمقتطف ، الذى ننتهز هذه الفرصة ، لنشيد بذكره؟

المحرر

***

ياطائر الروض . حى عنى شاعرا سما منـه الخيال وعذب الأنشاد . حيه فأن بينكما شبها ساميا جميلا ...

كلا كما منشد . فى إنشاده يتحاذى الطرب والألم ، و يتقابل النور بالظلام وأى قيمة للحياة لو انفرد فيها الطرب عن الألم ؟

بل كيف ندرك الوجود لو لا اختلاف مواقع الظل والنور ..

ماأشجاك منشدا فى الروض سحرا

وما أروعه والمعانى تنقاد صاغرة بين أنامله

***

ألا جيش جيوشك يا أميرالروض من بلابل وشحارير ، واجمع معداتك من ألحان وأنغام ، وضم تحت لوائك جنود الطبيعة بأسرها من غصن مياس

وجدول سلسال، وزهر فواح العبير .

ضم تحت لوائكَ يا ابن الطبيعة هـذه الجنود وقفوا أمام الشاعر وقفة التخشع والاحترام ، وحيوه تحية الأكرام والأجلال ؛ فهو مثلكم من الطبيعة منشأه ، وإليها مرجعه ، وبها حياته ، ومنها مستمد سفره ووحيه . بل هو يسمو عليكم بما يساوره من توق عميق لتفهم معنى الحياة وإدراك غاية الوجود

ياطائر الروض حيه . . .

حى عنى شاعرا سما منه الخيال وعذب الأنشاد

حيه فأن بينكا شبها ساميا جميلا

فالحياة قصيدة أجاد نظم أبياتها . ويخطىء من يقول إن الظهور مقياس النجاح ، والشهرة ميزان الأجادة

إن من عظيم الأعمال ما يبقى مهملا فى زوايا النسيان ، تنسج عليه عنا كب الأهمال نسيجا يواريه عن الأبصار ، وتسحب عليه الأيام والسنون ذيول العفاء

ولكن العظمة هناك بكل ما فيها من جوهر وحقيقة . هى هناك والأبدية تعلم ذلك وكفى . . .

***

لقد نظم قصيدة الحياة أعمالا تخفى حقيقتها عن عين الناظر إلى ظواهر الأمور ، المأخوذ ببهرجتها و زخرفها

نعم نظمها أعمالا تسبح فى سكون الليل بألف لسان ، وتنطق فى معرض الحوادث بآيات الحمد والثناء

وهاهو قد بلغ إلى بيت القصيد فى الحياة .

أجل . . . أجل . . . ها هو قد بلغ إلى بيت القصيد فنظمه ، بعد أن وقف أمامه مدة غير قصيرة خاشعا متهيبا

يريد الأجادة فى النظم والأبداع فى الأختيار . . .

يريد أن يتخير المعنى النبيل واللفظ السرى . . .

هاهو قد وفق . . . إلى مايريد
ما أروع المعنى !!!
ما أفخم المبنى !!!
إنه لبيت القصيد العظيم
هنئه بالقران
هنئه ياطائر الروض .
إن بينكما شبها ساميا جميلا
كلا كما منشد
فما أشجى نغماتك فى الروض سحرا
وما أروع المعانى والقوافى تنقاد صاغرة بين أنامله

فؤاد صروف

ثمن الحب

مختارة من شـــعر العقاد

شقيقة الحب من أسلافه الأول ... ومنية القلب من صفو ومن جذل
لا تظلمى الحب حقا أنت صائلة ... به ولا تنكرى تسبيحة الغزل
ما الحب ؟ ما الحب إلا أنه بدل ... من الخلود ؟ فما أغلاه من بدل
تزهى به حين يزهى الخالدون بما ... نالوه من أبد باق ومن أزل
داموا ، فلما تقاضينا الدوام لنا ... قالوا لنا حسبكم بالحب من أمل
أنشترى الحب بالدنيا وما رحبت ... ولا نحب ؟ لهـــذا أبين الفشل
يانظرة منك عن قرب أبيع بها ... حظ السماء ـ أطلى وأهبطى وصلى
صلى ولا تمهلى بخلا ولا سرفا ... إن الليالى لا تمشي على مهل

ياقلب

للشاعر المصري محمود أبو الوفا

ياليل هل ترثى لواجد　　　ياليل أنت عليه شاهد ؟
أشكو الوسائد للمراقد　　　والمراقد للوسائد
وجد أقض مضاجعي　　　هيهات ينجو منه واجد

بيني وبين هواي أبعاد　　　تضل بها المراصد
بئس التقاليد التي　　　تزع القلوب عن المقاصد
هل ذل من أنف الشكيم　　　سوى الشكائم والمقاود

عيسى أخوك محمد　　　وكلا كما بان وشائد
من فك بين عرى القلوب　　　وشد من عقد العقائد
ومن الذي ترك القوارح　　　لعبة بيد الولائد

أأقول آدم لم يكن　　　أم كان آدم غير واحد
رفقا بأفئدة تحرق　　　في المجامر للمعابد

وارحمتاه لعاشق　　　أضلاعه باتت سفافد
فكوا عن الحر القيود　　　وحسبه الزمن المعاند
يكفى على الأحرار　　　ما يلقون في أسر الخرائد

أصبحت من خوف القيود أخاف وسوسة القلائد

ياقلب ويحك فاتئد يكفي الذى بك من مواجد
من ذاتناغى فى دجى الليل البهـــيم ومن تنـاشد
أتظن أنك بالهـديل تجوز أقطار الفـراقد
لغـة البـلابل أين تذ هب بين هدهدة الهداهد

لهفى لقلب لم يصخ لهفى على سـاع لقاعد
لمـا سمعت أزيزه أز الحديد على المبـارد
ونظـرته فعرفتـه بين القنائص والطرائد
ناديته ماذا ترى ياقلب ماذا أنت واجد
فرنا إلى ولم يفه حال الغوى حيال راشد

اليوم أين عداته يرثونه فيما يـكابد
يجتاش بين أضالعى كالفرخ يخفق فى المصائد
صياد غزلان الـكثيب اليوم عبرة كل صائد
مازال يجلد للهـــوى حتى هوى تحت الجلامد

ياقلب حسبى إن أمت فى الحب أنك أنت خالد
فى الخلد من ربح الفتوح ومن قضى عذر المجاهد
يهنيك أن رمت الجمال فشمت مالم يلق رائد

والله فى ورد الهوى ما امتحت يوما سؤر وارد
تثني عليك الواردات وإن شكت منك الموارد

محمود ابو الوفا

اعرف نفسك بنفسك

بحث فلسفى صوفى

بقلم

الأستاذ عبد الواحد يحيى

كثيرا ماتقال هذه الجملة — اعرف نفسك بنفسك — وكثيرا مايخفى القصد منها . وبين هذا القول ، وذلك الغموض . يعترضنا سؤالان : أولهما ماهو المصدر الأصلى للجملة ؟ وثانيهما ما مدلولها الحقيقى وما ترمى إليه من أغراض ؟

قد يخيل لبعض القراء ، عند أول وهلة . أن السؤالين مفترقان . لارابطة ولاصلة تجمعهما . وعند تدقيق النظر ، والبحث والتمحيص ، سيثبت لهؤلاء أن السؤالين مرتبطان ببعضهما كل الارتباط

***

إذا سألنا أغلب من درسوا الفلسفة اليونانية ، عن الانسان الذى فاه بهذه الحكمة . لما تردد فريق منهم فى الاجابة بأن القائل سقراط . بينما يقول فريق ثان أفلاطون . ويقرر فريق ثالث بأنه فيثاغورس .

من هذا التضارب فى الرأى ، وذلك التباين فى القول . نستطيع الحكم بأن الجملة لم تقرأ فى كتاب لأحدهم ، باعتباره مصدرها

وقد يبدو حكمنا هذا جائرا ، ولكنه فى الحق حكم صحيح ، تثبت للقارىء صحته عندما يعلم أن اثنين من أولئك الفلاسفة ـ هما فيثاغورس ، وسقراط ـ لم يخلفا شيئا مكتوبا أو منقوشا

وأما ثالثهم أفلاطون ، فأن أحدا — بالغا مابلغ من العلم بالفلسفة — لا يستطيع أن يميز على التحديد ، ماقاله أفلاطون نفسه ، أو ماقاله بلسان أستاذه سقراط الذى لم نعرف أكثر آرائه ، إلا بواسطة أفلاطون ، وقد يكون أفلاطون

استقى من مدرسة فيثاغورس بعض التعاليم التى بثها فى محاوراته ، كما استقى من سقراط نفسه

من هذا نرى . أن من الصعب جدا ، أن تحدد نسبة بعض العبارات إلى أحد الثلاثة . فما ينسب لأفلاطون قد ينسب لسقراط ، بينما يكون سابقا لوقت الاثنين معا . فيكون صدر من المدرسة الفيثاغورزيه ، إن لم يكن من فيثاغورس نفسه



(صورة أفلاطون . لمناسبة ذكر اسمه فى المقال)

والحق . هو أن المصدر الحقيقى لهـذه الجملة ، لأقدم تاريخا من أولئك الفلاسفة أنفسهم ، بل لأ كثر قدما من تاريخ الفلسفة نفسها ، وأ كثر من هذا وذاك ، أنها أسمى مجالا من مجال الفلسفة ذاته

هـذه العبارة . وجدت محفورة على باب هيكل أبولون فى دلفى . واتخذها

سقراط ، كما اتخذها غيره قاعدة لتعاليمهم ، وإن اختلفت التعاليم ، وتباينت المقاصد - ومن المحتمل جدا أن فيثاغورس استعملها قبل سقراط نفسه

والذى نفهمه من هذا . هو أن أولئك الفلاسفة حاولوا أن يظهروا لنا ، بل أظهروا لنا بالفعل . أن تعاليمهم لم تكن من تلقاء أنفسهم فحسب ، بل كانت من مصدر أسمى ، ومنزلة أرفع ، يتناسبان مع مصدر الوحى ومنزلة الألهام

لهذا نراهم مختلفين جد الاختلاف عن الفلاسفة الحديثين ، الذين يحاولون جهد طاقتهم أن يقولوا شيئا جديدا يدعون أنه من بنات أفكارهم الخاصة ، وأن ما يبدونه من آراء وقف عليهم . كأن الحقيقة ملك لشخص معين .

والآن لماذا كان يود الفلاسفة القدماء ، أن يربطوا تعاليمهم بهذه العبارة ، أو بعبارات تماثلها ؟ ولماذا يمكنا أن نقول إن هذه العبارة أسمى منزلة من الفلسفة نفسها ؟

للجواب على الفقرة الأخيرة من هذا السؤال ، نقول إنه منحصر فى المعنى الأصلى المقصود من اشتقاق كلمة الفلسفة نفسها ، التى قيل إن أول من استعملها فيثاغورس

فكلمة (فيلوسوفيا) تعنى تماما حب (سوفيا) أى (الحكمة) والميل للحصول عليها

وقد استعملت لتدل دائما على كل تحضير للحصول على الحكمة ، وعلى الأخص لحبها ، حيث تساعده على أن يصير (سوفوس) أى (حكيما)

وبما أن الوسيلة لا تؤخذ على أنها غاية ، كذلك حب الحكمة ليس هو الحكمة بذاتها

وبما أن الحكمة ، هى بذاتها المعرفة الحقيقية الباطنة . فأنه يمكن القول بأن المعرفة الفلسفية ، إن هى إلا المعرفة السطحية الخارجية ، فليس لها من قيمة فى نفسها ، أو من نفسها . وماهى إلا درجة أولية ، فى الطريق المؤدية للمعرفة السامية الحقة ، التى هى الحكمة

معروف لمن درسوا الفلسفة ، أن معظم الفلاسفة القدماء ، كان لهم فى مدارسهم ، نوعان من التعليم : خارجى ، وداخلى : أما الأول ، فهوما كان مكتوبا وأما الثانى ، فيصعب علينا معرفة طبيعته على التحقيق . وذلك لقصره على القليلين أولا ، ولصبغته السرية ثانيا ، وهذه الصبغة ، وتلك القلة ، دليلان على وجود غرض أسمى من تعلم الفلسفة الذى لا يستطيع تأديته . على أنا نعتقد ، أن لهذا التعليم السرى ، أقوى صلة مباشرة بالحكمة ذاتها ، والذى ما كان عماده فى حال ما ، العقل أو الاستدلال المنطقى كالفلسفة التى تعتمد عليهما ، و بهما سميت المعرفة العقلية

ومسلم من الفلاسفة القدماء ، بأن المعرفة العقلية — أى الفلسفة — ليست هى المعرفة العليا الحقة ، وبعبارة أخرى ليست هى الحكمة ذاتها

لكن . هل يمكن أن تعلم الحكمة كما تعلم المعرفة الخارجية بواسطة التلقين أو الكتب ؟ هذا مستحيل كل الاستحالة ، وسترى سبب ذلك ، والذى يمكننا أن نقرره ، هو أن التحضير الفلسفى ، ما كان ليكفى مطلقا . لأنه لا يختص إلا بقوى محدودة ، هى القوى العاقلة ، بينا يستمد التحضير للحكمة من الكون الكلى للأنسان نفسه .

وإذن فهناك تحضير آخر للحكمة ، أسمى منزلة من التحضير الفلسفى ، لا يلجأ فيه إلى العقل ، بل إلى النفس والروح ، وهـــذا ما نستطيع تسميته بالتحضير الباطنى ، الذى عرف أنه من الصفات التى امتاز بها تلاميذ الفيثاغورية الممتازون ، والذى ظل حتى مدرسة أفلاطون ، بل حتى وصل إلى الأفلاطونية الحديثة بمدرسة الاسكندرية التى ظهر فيها ذلك التحضير ، بوضوح تام ، كما ظهر جلياً فى نفس الوقت عند أتباع الفيثاغورية الحديثة

لمثل هذا التحضير الباطنى ، تستعمل الكلمات على أنها صور رمزية لأحدى الوسائل التى تساعد على تركيز التأمل الباطنى ، وبهذا التأمل ، ينقل الأنسان إلى بعض حالات نفسية وروحية يمكنه فيها أن يسمو فوق درجة المعرفة العقلية

التى وصل إليها سابقا . بما وأن هـــذه فوق مستوى العقل فأنها منطقيا فوق مستوى الفلسفة . إذ يستحيل علينا أن نعطى للفلسفة غير المعنى المعروف عنها ، فهى تستعمل دائما لتعيين ما يبحثه العقل فحسب . ومن الغرابة أن الفلاسفة الحديثين ، يقيدون الفلسفة بهذا القيد ، كأنها كاملة فى نفسها وغاب عن أذهانهم ، أن فوق فلسفتهم ، ماهو أسمى بكثير

وقدعرف هذا النوع من التعليم الباطنى فى الأقطار الشرقية ، قبل أن يعرف فى اليونان حيث كان معروفا عند الأخيرين ، باسم (ميستيريا) أى (المساتير) (١) وقد أدخل أولئك الفلاسفة — وخاصة فيثاغورس — تلك الميستيريات فى تعاليمهم لأنها كانت بالنسبة إليهم نوعا جديدا ، ومعنى حديثا للآراء القديمة . فقد كان يوجد أنواع كثيرة من تلك الميستيريات لها مصادر مختلفة . لكن التى ألهمها فيثاغورس ، وأفلاطون ، كان لها صلة بطقوس معبد أبولون

وقد احتفظت الميستيريات دائما بصبغة سرية ، ولذلك صار اسمها مرادفا للسر ، فالمعنى الأصلى لتلك الكلمة ، هو الصمت التام ، فكل الأشياء التى تتصل بالغيبيات غير قابلة للتفسير بواسطة الكلمات ، وبهذا لم يكن لها من طريق التعلم غير طريقة الصمت . وجاء الفلاسفة الحديثون فلم يعرف أكثرهم تلك الطريقة فهربوا خلف استعمال الكلمات التى ندعوها من طريقة التعليم الخارجى

ويمكننا أن نؤكد ، أن هـذا التعليم الصامت ، كانت طريقته الأشكال والرموز ووسائل أخرى . يراد منها تهيئة الأنسان لحالات باطنية ، يمكنه فيها — بعد خطوات متتابعة — أن يصل أخيرا إلى المعرفة الحقيقة ، وهذا هو الغرض الأساسى العـام من (الميستيريات) وما يشابهها غرضا .

---

(١) لم نعثر على ترجمة دقيقة تؤدى المقصود من كلمة (ميستيريا) وقد راجعنا الأستاذ فريد بك وجدى فى هـذا ، فعبر عنها بكلمة (المساتير) وكنا نرى أنها قد تكون الغيبيات أوالرموز أوالخفائية ، فلعل أحد حضرات القراء يجد لها معنى أدق ؟
المحرر

أما (الميستيريات) التى تتصل بطقوس أبولون ، أو بأبولون نفسه ، فانه ينبغى أن نشرح للقراء بأنه كان معروفا فى عرفهم ، بأنه رب الشمس والنور . والمعنى الروحى للنور . هو المبدأ المشرق ، الذى منه تنبعث كل المعارف من علوم وفنون .



(ابولون لمناسبة ذكر اسمه فى المقال)

وقد قيل إن الطقوس الدينية لمعبد أپولون ، جاءت من الأقطار الشمالية . وقد ثبت هذا فى الكتب المقدسة كالفيدا الهندى والآفشتا الفارسى . وقد كانت دلفى معروفة بأنها المركز الروحى العام . وقد وجد فى هيكلها ، حجر يسمى (أومفالوس) يرمز إليه بأنه مركز العالم

يظهر أن تاريخ فيثاغورس ، بل واسم فيثاغورس نفسه ، له صلة وثيقة بالطقوس الدينية لأپولون . فقد كان يسمى بيثيوس . وقد قيل إن بيثو هو الاسم القديم لدلفى ، وإن المرأة التى كانت تتلقى وحى الالهة ، فى الهيكل كانت تسمى بيثيا . ومعنى (بيثيا جوراس) هو دليل (بيثيا) ودليل بيثيا هو نفسه ، وقيل أيضا أن البيثيا هى التى أعلنت أن سقراط أحكم الرجال . ومن هنا نستطيع أن نفترض أن لسقراط ، إتصالا خاصا بالمركز الروحى فى دلفى كفيثاغورس أيضا .

أضف إلى ذلك ، أن كل العلوم ، كانت تنسب إلى أبولون ، وبخاصة الهندسة والطب ، وقد كان أبولون يمثل نفسه كأنه يمارس هذه العلوم عامة ، والهندسة منها بوجه أخص ، وفى مدرسة فيثاغورس كانت الهندسة ، وسائر فروع الرياضيات ، هى الجزء العام فى التحضير للمعرفة العليا ، وعند هذه المعرفة ، لم تكن تلك العلوم لتترك جانبا بل كانت تستعمل كرموز للحقيقة الروحية . وقد كانت الهندسة لدى أفلاطون تحضيرا ضروريا لكل فرع من فروع تعاليمه ، حتى صح عنه قوله ، الذى حفره على مدخل مدرسته : (لا يدخله إلا عالم بالهندسة) ، و يظهر معنى هذه الكلمات جليا إذا قورنت بقول آخر لأفلاطون نفسه (الآله يصنع الهندسة دائما) وهنا يجب أن نذكر أن المقصود بالآله المهندس، هو أبولون

وإذن فيجب ألا ندهش إذا ما رأينا الفلاسفة القدماء استعملوا تلك الجملة المحفورة على مدخل هيكل دلفى . بعد أن عرفنا صلة الاتصال بينهم ، وبين طقوس أبولون ورموزه

من كل ما تقدم يمكننا أن ندرك بسهولة ما ، الغرض الحقيقى لهذه الجملة ويمكننا أيضا أن ندرك أخطاء الفلاسفة الحديثين عنها ، وأساس خطأهم هذا ناشىء من أنهم أخذوا الجملة ، باعتبارها صادرة عن أحد الفلاسفة الذى كثيرا ما ينسبون إليه فكرة كفكرتهم ، مع أن الحقيقة هى أن الفكرة القديمة كثيرا ما تختلف عن الفكرة الحديثة كل الاختلاف ، ولذا يعطى كثير منهم لهذه الجملة

معنى سيكوليجى (علم النفس) مع أن علم النفس هو دراسة الظواهر العقلية فحسب . أى دراسة الوصف الخارجى ـ لا الذاتى ـ للكائن الحى

ويرى بعض الحديثين ، وخصوصا الذين ينسبونها إلى سقراط ، أنها وضعت لغرض خلقى ، هو البحث عن قانون داخلى ، لاستعماله فى الحياة العملية ، وكل هذه التفسيرات الظاهرة ، ولو أنها أحيانا لا تكون باطلة ، فأنها على الأقل لا تكفى تماما ولا تحقق الصفة المقدسة التى كانت لهذه الجملة فى أول الأمر ، وهى التى لها معنى أعمق كثيرا من هذه التفسيرات الظاهرة .

فأنها أولا تفيد أن التعليم الخارجى لا يمكن أن ينتج معرفة حقيقية ، وهى التى يجدها الأنسان فى نفسه فقط ، ولا يخفى أن أى معرفة لا يمكن الحصول عليها إلا بالأدراك الشخصى ، وبدونه لا يكون للتعليم نتيجة فعالة ، والتعليم الذى لا يوقظ فيمن يتلقاه ما يناسبه لا يمكن أن يعطى أى معرفة بالمرة ، ولذلك قال أفلاطون إن كل ما يتعلمه الأنسان هو فى قرارة نفسه ، وأن تجاربه وما يحيط به من الخارج ما هى إلا أسباب تساعده ليصير عالما بما فى نفسه ، وهذا التيقظ الهام يسمى (أنامنيسيس) أى التذكر ، فأذا كان هـــذا صحيحا لأى معرفة ، فالأحرى أن يكون أصح بالنسبة للمعرفة الأسمى والأعمق ، فأذا أراد شخص الحصول على تلك المعرفة ؛ فأن كل الوسائل الخارجية الحسية تصبح شيئا فشيئا غير كافية ، حتى أنها أخيرا تكون عديمة الفائدة . ومع أنها ربما تساعد على الاقتراب عدة درجات نحو الحكمة ، فأنه لا يمكن بواسطتها الحصول عليها تماما ، ومن الشائع فى الهند أن (الجورو) الحقيقى أى (الشيخ) هو فى نفس الأنسان ، ولا ينبغى البحث عنه فى العالم الخارجى . أما المساعدة الخارجية فربما تكون ضرورية فى البداءة ، وذلك لتجهيزه ليصير قادرا على أن يجد فى نفسه بنفسه ما لا يمكنه أن يجده فى العالم الخارجى ، وخصوصا ما كان فوق مستوى المعرفة العقلية ، فأنه يحتاج لتحقيق حالات تتعمق دائما فى باطن الكائن ، وتتجه نحو المركز المرموز إليه بأنه القلب ، وعنده ينبغى انتقال إحساس

الأنسان ، حتى يصير قادرا على الحصول على المعرفة الحقيقية . وهذه الحالات التى كانت تتحقق فى (الغيبيات القديمة) كانت درجات فى الأنتقال من العقل إلى القلب ، وقد كان فى هيكل دلفى حجر يسمى (الأومفالوس) يمثل به مركز الكائن الأنسانى ، وفى نفس الوقت مركز العالم ، وذلك للصلة التى بين (العالم الأكبر) و (العالم الأصغر) أى الأنسان ، ولذا تجد أن كل ما فى أحدهما يتصل اتصالا تاما بما فى الآخر . قال ابن سينا : —

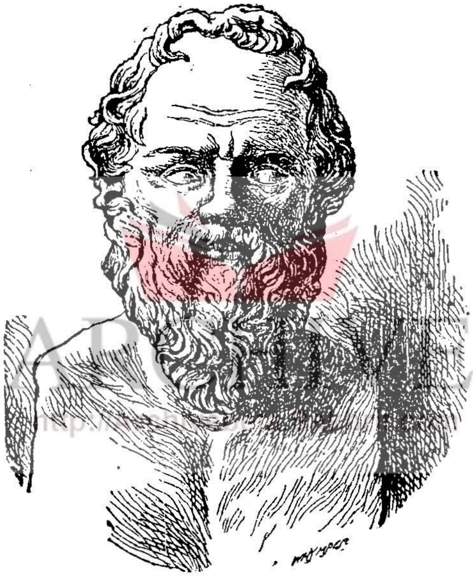
وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ومما يدعوا إلى التسلية حقا ، هذا الاعتقاد الذى سار قديما بأن (الأومفالوس) كان قد سقط من السماء ، وإنك لتدرك شدة اعتقاد اليونان القدماء فى هذا الحجر إذا علمت أنه يقرب من اعتقادنا فى الحجر الأسود الذى فى الكعبة المقدسة . . .

وهذا التشابه الذى بين العالم الأكبر ، والعالم الأصغر (الأنسان) هو الذى يجعل من أحدهما صورة للآخر ، وهذا الاتصال بين العناصر التى يحتويها كلاهما ، يبين لنا أن الأنسان يجب أن يعرف نفسه أولا ، لكى يمكنه أن يعرف كل ماحوله ، لأنه يمكنه أن يجد كل شىء فى نفسه . ولهذا السبب تجد أن لبعض العلوم ـ وخاصة تلك التى كانت جزءا من المعرفة القديمة والتى أصبحت غير معروفة تقريبا عند الحديثين ـ معنيين : ففى الشهود العينى تشير هذه العلوم إلى « العالم الأكبر فتعتبر صحيحة من هذه الوجهة . كما يوجد لها فى نفس الوقت معنى أكثر عمقا ، وهو مايشير إلى الأنسان ، وإلى الطريق الباطنى الذى بواسطته يمكنه إدراك المعرفة الحقيقية فى نفسه ، أى إدراك كائنه الخاص وقد قال أرسطو فى ذلك « الكائن هو كل من يعرف ماهيته » ولذلك حيث توجد المعرفة الحقيقية — لاظواهرها ولا شبحها — تندمج المعرفة والكون ويصيران شيئا واحدا : —

والشبح فسره أفلاطون ، بأنه كل معرفة بالحس ، حتى المعرفة العقلية ،

فأنها ولو أنها تتكون من درجة أعلا ، فأن مصدرها الأول ، هو الحس . والمعرفة الحقيقية ، هى فوق مستوى العـقل ، ولذا نرى أن تحقيقها ، أوتحقيق ماهية الـكائن نفسه ، يشابه أو يطابق تـكوين العالم كما ذكرنا سابقا ، ولذا فأن بعض العلوم تحت ظواهر هـذا التـكوين قد استعملت (الغيبيات) القديمة على هذا المعنى الثنائى ، كما وجـد أيضا فى كل أنواع التعاليم التى كانت ترمى إلى نفس الغرض بين الأمم الشرقية . وفى الغرب يظهر ، أن مثل هـذه التعاليم وجدت فى زمن



(صورة سقراط . لمناسبة ذكر اسمه فى المقال)

القرون الوسطى ، ولو أنها فقدت الآن تماما ، لدرجة أن غالبية الغربيين ليس عندهم أقل فكرة عن طبيعتها ، أو وجودها ، أومكانها .

مما سبق ترى أن المعرفة الحقيقية ، ليس طريقها العقل بل طريقها النفس والروح . ويمكن أن نضيف إليهما ، الـكائن الـكلى ، لأنها ماهى إلا الأدراك الـكلى لهـذا الـكائن فى كل حالاته ، وهذا هو نهاية وكمال المعرفة ، والحصول على الحـكمة السامية . وحقيقة كل مايختص بالنفس ، ومايختص بالروح أيضا يظهر فقط الدرجات فى هذه الطريق إلى الجوهر الباطنى ، أى النفس الحقيقية ،

وهذا يمكن إدراكه فقط عند مايصل الكائن إلى مركزه الخاص ، متحدة كل أجزاء فؤاده ومركزه فى نقطة واحدة . عندها تظهر له كل الأشياء تحتويها جميعها تلك النقطة ، كما كانت فى مبدأها الأول ؛ وهذا يمكنه أن يعرف كل الأشياء ، كما هى فى نفسه ، ومن نفسه ، كما يظهر الوجود الكلى الأوحد فى وحدة جوهر الفرد : —

ومن السهل أن نرى الفرق بين هذا ، و بين علم النفس فى المعنى الحديث فأن الأول يسمو على الثانى بمعرفة للنفس أصح وأعمق ، والثانى ماهو إلا خطوة أولى فى الطريق . و يجب أن نلاحظ أن المعنى لا ينبغى أن يقصر على النفس ، لأن كلمة « النفس » مستعملة فى اللغة العربية بما يطابقها فى اليونانية « بسيخى » لا يظهر معناها إلا فى الجملة الأصلية التى تبحثها . فى مثل هذه الحالة لا يمكن أن يسرى لهذه الكلمة المعنى الدارج ، بل لابد أن يكون لها معنى أكثر سموا يجعلها مطابقة لكلمة « ذات » ويجعلها تطابق النفس الحقيقية . ولدينا مايثبت هذا المعنى فى الحديث الشريف ، الذى يطابق الجملة اليونانية ، هو « من عرف نفسه فقد عرف ربه »

فعند مايعرف الأنسان نفسه ، ويعرفها حقا فى جوهره الباطنى ، أى فى مركز كائنه عندئذ يعرف ربه . فأذا عرف ربه ، عرف كل الأشياء التى منه تصدر وإليه ترجع . يعرف كل الأشياء فى الوحدة السامية للمبدأ الألهى . الذى لاشىء خارج عنه على الأطلاق وهذا معنى ماقاله سيدى محي الدين بن عربى من أن لاشىء يخلو من اللامحدود ؟

عبدالواحد يحيي

فى الأدب العربى

مهيار الديلمي

دراسة تحليلية لحياته وشعره

للأستاذ حامد عبد القادر

المدرس بالمدرسة الخديوية الثانوية

إن الموضوع الذى يحاول الأستاذ بحثه ، لمن أجل المواضيع التى تحتاج إلى توفر فى المادة العلمية والأدبية لباحثه ، وذلك لمنزلة مهيار وأثره فى الأدب العربى ، والذى أبى عليه الدهر إلا قبره ، حتى جاءت دار الكتب فردت له بعض حقه على الأدب بنشر ديوانه .

وها هو الأستاذ حامد يرد له كل حقه ، بدراسته له دراسة تفصيلية جامعة وفق فيها كل التوفيق . ولا غرابة فى هذا . فالأستاذ حامد ، من أولئك القليلين جدا ، الذين نالوا من العلم والأدب أوفر نصيب . فهو قد تخرج فى كلية اكستر وجامعة لندن ، وحصل على عدة دبلومات عالية فى التربية واللغات السامية والفارسية .

وبما أن وزارة المعارف قررت فى مناهج هـذا العام دراسة مهيار ، على طلبة (البكالوريا) قسم أدبى ، فقد رأينا أن ننشر فى هذا الجزء ، قسما عظيما من هذا البحث ، واعدين بنشر بقيته — إن أمكن — فى جزء يونيه ، ليطلع حضرات الطلبة عليـه قبل امتحانهم المقبل . وفقنا الله وإياهم إلى النجاح ؟

المحرر

مقـــدمة

(١) مختصر تاريخ الدولة البويهية

حوالى سنة ٣٢٠ أى السنة التى بويع فيها القاهر بالله الخليفة العباسى التاسع عشر (٣٢٠ — ٣٢٢) ظهر أمر أسرة من أسرات الفرس . تلك هى أسرة بنى بويه التى يقول عنها صاحب كتاب الفخرى (إنها دوخت الأمم وأذلت العالم واستولت على الخلافة ودارها (لأول مرة فى تاريخ الخلافة) فعزلت الخلفاء وولتهم (وسملت أعين بعضهم) واستوزرت الوزراء وصرفتهم ، وانقادت



(الأستاذ حامد عبد القادر)

لأحكامها أمور بلاد العجم وأمور العراق وأطاعهم رجال الدولة بالاتفاق ، هذا بعد الضيق والفقر والذل والمسكنة ومعاناة الحاجة والاضطهاد فأن جدهم أبا شجاع بويه وأباه وجده كانوا كآحاد الرعية الفقراء ببلاد الديلم (مقاطعة فى الجنوب الغربى من بحر طبرستان أو بحر الخزر) وكان بويه (عميد هذه الأسرة) صيادا

للسمك وقد كان معز الدولة بعد تملكه البلاد يعترف بنعمة الله تعالى و يقول كنت أحتطب الحطب على رأسى

كان لبويه هذا ثلاثة أولاد ، على ، واحمـــد ، وحسن انتظموا فى سلك الجندية ومازالوا يشتغلون فى خدمة الملوك من السامانيين ثم الزياريين حتى تولى على أكبرهم إمارة إقليم الكرج من قبل مرداويج الزيارى صاحب جرجان (٣١٦ - ٣٢٣) ثم جد فى توسيع إمارته جنوبا حتى أوصلها الى أصفهان ثم استولى على أراجان ثم نوبندجان (نابند) على الخليج الفارسى

وأما حسن فأنه طرد حامية العرب من كازروم وأخذ يجوب البلاد حتى التقى بأخيه على وساعده على فتح الأقاليم الشرقية ثم اتصل بهما اخوهم أحمد فاستولوا على شيراز سنة ٣٢٢ فاضطر الراضى بالله الذى تولى الخلافة فى هذه السنة (الخليفة العشرون ٣٢٢ - ٣٢٩) للاعتراف بولاية هؤلاء الأخوة وجعلهم من أمراء دولته

وما زال نجمهم فى الصعود حتى سقطت بغداد فى يد أحمد سنة ٣٣٤ فى عهد الخليفة العباسى الثانى والعشرين عبد الله المستكفى بالله (٣٣٣ — ٣٣٤) الذى لم تدم خلافته طويلا بعد خلافة المتقى بالله (٣٢٩ — ٣٣٣) فأرغم المستكفى على الخضوع لهم وتلقيبهم بألقاب الشرف الثلاثة المشهورة فلقب أحمد معز الدولة وعليا عماد الدولة وحسنا ركن الدولة وقد اقتسم هؤلاء وأحفادهم الامبراطورية الأسلامية فى عهد المستكفى والمطيع (٣٣٤ — ٣٦٣) والطائع (٣٦٣— ٣٨١) والقادر (٣٨١ — ٤٢٢) والقائم بأمر الله (٤٢٢ — ٤٦٧) الذى انقرضت دولتهم فى عهده

ويعد هذا العصر الذى يبلغ نحو قرن وربع من عصور المحن الأسلامية التى لايذكرها الأنسان إلاويذكر معها سفك الدماء والشغب والاضطراب وهو بحق عصر العصبية الفارسية وعصر النفوذ العلوى

غلب فيه الخلفاء من بني العباس على أمرهم ولم يبق لهم من الخلافة إلا اسمها

وقد كان بنو بويه يشمخون بأنوفهم ويعتزون بأنفسهم ويفخرون بقديم حضارتهم وانتسابهم إلى القدماء من أكاسرة فارس. مقاليد الأمور فى أيديهم. وشؤون الخلافة فى حوزتهم يتحينون الفرص للأيقاع بالعرب وعصبيتهم ولا يتورعون عن معاقبة الخلفاء والحط من كرامتهم تارة بالقتل وأخرى بالعزل وسمل الأعين على مرآى من العلويين الذين كانوا يودون لو ينتقل ملك بنى العباس إليهم فهم لذلك يكيدون للخلافة كيداً ويوقعون بالخلفاء سرا ويسعون بالدعاية إلى قلب الحكومة، والفرس وغيرهم من طوائف الشيعة من ورائهم يناصرونهم كلما وجدوا لذلك سبيلا

فلا غرو إذا كان الجو دائما ملبدا بالسحب القاتمة فى ذلك العصر، ولا عجب إذا أخذ نجم العرب فى الأفول وأصبح نفوذ الفرس فوق كل نفوذ وصار للنيروز والمهرجان والسوق منزلة العيدين ووصل التشيع لعلى وآله إلى حد لاعهد له من قبل فأقيمت المآتم ومثلث روايات التعازى فى المحرم من كل سنة وقد كان مما لا بد منه أن يؤدى كل هذا إلى فتن وقلاقل وثورات ومطامع داخل الأمبراطورية وخارجها فأنت تسمع أن فريقا من غلاة الشيعة الأسماعيليين يسمون القرامطة سكان نواحى البحرين يعيثون فى الأرض فسادا ويوالون الأغارة على الكوفة وما جاورها من البلدان

وتسمع أيضا أن جنود خلفاء الفاطميين وهم أيضا شيعة إسماعيليون ينقصون البلاد من أطرافها وينقضون على الشام من جنوبها فيفصلونها عن جسم الدولة العباسية المعتل بينما ترى أن المرداسيين أصحاب حلب فى (٤١٤ - ٤٧٢) والعقيليين ولاة الموصل (٣٨٦ - ٤٨٩) والمردانيين الأكراد ولاة ديار بكر (٣٨٠ - ٣٨٩) يقطعون أوصال الدولة ويقسمون شمال الشام بينهم وبين الفاطميين على مسمع من خليفة بغداد ورغم أنف أمرائها

وبينما كانت هذه الشرور تنخر فى عظام الدولة شمالا وغربا إذ كانت دولة فتية تنشأ ويعلو شأنها وتؤسس ملكها وتنشر رايتها فوق الربوع الشرقية وتستولى

على الأمبراطوية الأسلامية جزءاً جزءاً وقطعة بعد أخرى ، تلك هى الدولة الغزنوية التى بدأت صغيرة فى بلاد أفغانستان ثم امتد سلطانها إلى خراسان وغلبت الدولة السامانية على أمرها ثم قامت الدولة السلجوقية وعلا شأنها واستولت على العراق والشام فاتصلت تخومها بتخوم الدولة الفاطمية وجمعت الأمبراطورية الأسلامية فى آسيا من ركن إلى ركن تحت راية واحدة وذلك حين استولى طغرل بك على بغداد سنة ٤٤٧ ونودى به سلطانا عليها

(٢) نشأة مهيار

فى عهد الدولة البويهية وفى تلك البيئة التى وصفناها لك آنفا وفى أوائل النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ولد شخص قدر له أن يكون شاعر الفرس ورافع لواء العلويين ومخلد آثار الشيعيين باللغة العربية ذلك هو مهيار ابن مرزويه الذى لقب فيما بعد بأبى الحسن (أو أبى الحسين) وكانت ولادته ببغداد فى أحضان أسرة فارسية ديلمية متوسطة الحال فأغرى والده بحكم البيئة بتنشئته تنشئة عربية لأن بغداد فى ذلك العصر كانت لاتزال مهد اللغة العربية ومركز الثقافة العربية وموطن الخلافة الأسلامية وقلب الأمبراطورية العباسية فلم يكن هناك بد لمن يريد النبوغ والشهرة أن يحذق العربية .

والحق أن هذا العصر هو العصر الذهبى لكتابة الرسائل بالعربية والتفنن فى إجادتها فقد ضمت الدولة البويهية إلى أحضانها كثيرا من الكتاب الذين يعتبر كل منهم عميدا ورئيسا مثل ابن العميد والصاحب ابن عباد والخوارزمى وبديع الزمان الهمزانى

وربما شجعت سمعة هؤلاء مهيار وشجعه ما كانوا يشغلونه من المناصب الراقية فأقبل على تعلم العربية بكل ماديه من عزم وحزم حتى أتقنها وأجاد علومها المختلفة وأحاط بتاريخ العرب وقدقدرله أن يتصل بالشريف الرضى شاعر عصره فتحول مجرى جهوده عن الكتابة إلى الشعر فتخرج على الشريف فى ذلك الفن واقتبس قبسا من روحه وأخذ عنه أخلاقه وآدابه ومشاربه وأسلوبه ولعلك

تلمح من خلال شعر مهيار ما كان لاتصاله بالشريف من آثار فى روعة أسلوبه وجلال معانيه وعذوبة ألفاظه والعفة فى الغزل والنسيب والتلطف فى الهجاء وعلو النفس وعدم الألحاف فى السؤال ولم يقف اتصال مهيار بالشريف إلى هذا الحد بل كان من اتصال نفسيهما واتحاد روحيهما أن أسلم مهيار وأعتنق مذهب غلاة الشيعة على يد أستاذه وذلك سنة ٣٩٤ هـ

ومازال مهيار يذهب فى الشعر كل مذهب حتى نبغ فى فنونه عامة وفى المدح والرثاء والغزل والوصف والفخر خاصة

وأجل مدائحه ما مدح به عليا وآله والأمراء والأدباء من أبناء عصره ، وأشد مراثيه أثرا فى النفس ما رثى به الأمام عليا وندب به أولاده وما رثى به أستاذه الشريف الرضى لما توفى سنة ٤٠٦ هـ - وقلما تخلو قصيدة من مطولاته من الغزل والنسيب تارة على مذهب المتقدمين وطورا على طريقة المحدثين -

أما أوصافه فدقيقة تدل على قوة ملاحظته وقد كان يصف كل ما يقع تحت نظره من المناظر الخلابة والأشياء التى قلما يلتفت الأنسان إليها كالشمع والقلم والدواة والعود - وكثيرا ما كان يفخر بنفسه وبانتسابه للفرس واعتناقه الدين الأسلامى وولائه لعلى وآله

ثم استمر مهيار يملأ الأرض بقصائده الطوال ويحيي الملوك والأمراء والأدباء ويمدحهم ويرثى موتاهم ويهنئهم بالأعياد والمواسم حتى توفى سنة ٤٢٨ هـ

هذا هو تاريخ حياة مهيار ذكرناه لك مجملا ونود الآن أن نبدأ بتحليل شخصيته وبيان نواحى عقليته بشىء من التفصيل مستشهدين على ما نقول بأشعاره مبينين لك مقدار تأثره ببيئته فى ذلك كله فنقول : -

(٣) مذهب مهيار سياسى

كان مهيار شعوبيا متعصبا للفرس قبل كل شىء

والشعوبيون (أو الشعبيون) طائفة من الأدباء والمؤرخين يفضلون

الأعاجم من الفرس والروم والهنود والمصريين الذين اعتنقوا الأسلام على العرب ثم هم يناضلون ويقيمون الحجج والبراهين على أعدائهم (أهل التسوية) وقد قامت المنازعات والمفاخرات بين هذين الفريقين بعد فتح العرب لبلاد فارس والروم ولكن الخصومة بلغت منتهاها في ذلك العصر الذى نحن بصدده والذى ظهر فيه الشعوبيون لاسيما المتعصبين منهم للفرس على العرب

ومن الشعوبيين أبو عبيدة البيزوتى وحمزة الأصفهانى ومن أهل التسوية الجاحظ وابن دريد وابن قتيبة والزمخشرى

ومن الشعراء الشعوبيين بشار بن برد لأنه كان فارسى الأصل ولكن تعصب مهيار لأبناء جنسه بلغ مبلغا لم يعهد فيه من قبل وإنما دعاه لذلك نشأته فى أسرة فارسية مجوسية وساعده على ذلك معيشته تحت حماية دولة فارسية النشأة والنزعة وإنك لترى أثر شعوبيته ظاهرا فى أشعاره خصوصا فى تلك القصائد التى نظمها قبل أن يسلم وليس أدل على ذلك من قصيدته التى أولها :

أتعلمين يابنت الأعاجم كم لأخيك فى الهوى من لائم

قصيدة من أمهات قصائده السياسية وهى باكورة شعره سنة ٣٧٨ أى قبل أن يسلم بسبع سنين ولعل ذلك كان بعد اتصاله بالشريف الرضى وشربه من حياض العلويين كما سترى . ومهيار يبدأ هـذه القصيدة بالفخر بنفسه والتشيع لوطنه والتنويه بشرفه الذى ناله من انتسابه للفرس ويذكر أنه لا يبالى بمن يلومه فى سبيل ذلك وهذا حيث يقول بعد المطلع السابق :

يهب يلقاه بوجه طلق ينطق عن قلب حسود راغم
وهو مع المجد على سبيله ماض مضاء المشرفى الصارم
ممتثلا ما سنه آباؤه إن الشبول شبه الضراغم
من أيكة منذ غرستها فارس ما لان غمزا فرعها لعاجم
لمن على الأرض وكانت غيضة أبنية لا تبتغى لهادم
من فرس الباطل بالحق ومن أرغم للمظلوم أنف الظالم

الا بنو ساسان أو جدودهم ... طر بخوافيهم و بالقوادم
أيهم أبكى دما فكلهم ... يجل عن دموعى السواجم
كم جذبت ذكراهم من جلدى ... جذب الفريق من فؤاد الهائم
لاغرو والدنيا بهم طابت إذا ... لم تحل يوما بعدهم لطاعم

بعد هذا قف هنيهة واستمع لمهيار يحمل حملة منكرة على العرب و ينتقل من التلميح إلى التصريح فى تفضيل العجم عليهم ثم اصغ له يؤكد مدح الفرس و يعيد الكرة على العرب فيحط من منزلتهم مع شىء من التقريع والتوبيخ يضعه فى بيت واحد فذلك حيث يقول :

يا ناحلى مجدهم أنفسهم ... هبوا فللأضغاث عين الحالم
شتان رأس يفخر التاج به ... وأرؤس تفخر بالعمائم
كم قصرت سيوفهم عن جارهم ... خطى الزمان قائما بقائم
ودفعت حماتهم عن نوب ... عظائم تكشف بالعظائم
وخولوا من نعمة واغتنموا ... جل السماح عن يمين غارم
مناقب تفتق مارقعتم ... من بأس عمرو وسماح حاتم

ثم هو بعد يتلطف و يظهر مهارة فنية فيسل النبى من العرب (كما تسل الشعرة من العجين) و يذكر ما كان له من الأثر فى هدايتهم وتقويم معوجهم ورفع شأنهم وإعلاء كلمتهم حتى أصبحوا أمة مهيبة الجانب قوية السلطان وذلك حيث يقول :

ما برحت مظلمة دنياكم ... حتى أضاء كوكب فى هاشم
بنتم به وكنتم من قبله ... سرا يموت فى ضلوع كاتم
حللتم بهديه ويمنه ... بعد الوهاد فى ذرى العواصم
وعاد « هل من مالك مسامح » ... تدعون « هل من مالك مقاوم »
تخفق راياتكم منصورة ... إذا ادرعتم باسمه فى جاحم (١)

ولم يسمح تعصب مهيار للعجم ضد العرب أن يقف به عند هذا الحد بل

(١) الجاحم : الحرب وشدة القتل

إنه ينقض على أعدائه مرة أخرى و يلومهم أشد اللوم على إيذاء ذلك النبي الكريم الذى نشأ فيما بينهم ويعنفهم من التعنيف على تعذيبه وسلوك طرق النفاق والمشاكسة معه بقوله :

عمّر فيكم فى أذى تفضحكم أخباره فى سـير الملاحم
بين قتيل منكم محارب يكفر أو منافق مسالم
ثم قضى مسالـمًا من ريبة فلم يكن من عذركم بسالم

ثم هو بعـد أن ينتهى من ذكر خيانة العرب لنبيهم وسوء معاملتهم له يظهر تشيعه لعلى وآله و يأخذ على العرب عدم انتصارهم لهم وسكوتهم على مقتل الحسين بن على الذى استحل قتله إمامهم الباغى . يريد بذلك يزيد بن معاوية ولعله أراد بهذا التشيع التقرب لأستاذه الشريف الرضى وإرضاء الولاة وأصحاب الرأى من الشيعة ، وذلك بقوله :

نقضتم عهده فى أهـله وحلتم عن سنن المراسم
وقد شهدتم مقتل ابن عمه خير مصل بعـده وصائم
وما استحل باغيا إمامكم يزيد بألطف(١) من ابن فاطم
وها إلى اليوم الظبا خاضبة من دمه مناسر القشاعم

بعد هذا يرجع إلى موضوع القصيدة الأساسى وهو مدح الفرس فيصفهم بالوفاء والثبات على العقيدة ، أما ما يأخذه العرب على الفرس من أنهم فتحوا بلاد فارس وغلبوا العجم على أمرهم فيرد عليه مهيار بأنه كبوة من كبوات الدهر التى قلما ينجو منها أحـد فمن الواجب إذن التغاضى عنها كما يتغاضى عن زلة السابق وهفوة الحازم ثم يختم قصيدته كما بدأها بتعنيف ، من يلومه من العرب على موالاة الفرس وانقطاعه لهم والافتخار بالانتساب إليهم بقوله :

والفرس لما علقوا بدينه لم تنل العروة كف فاصم
فمن إذا أجـدر أن يملكها موقوفة على النعيم الدائم

---

(١) ألطف : الموضع الذى قتل فيه الحسين

لا بد يوما أن تقال عثرة من سابق أوهفوة من حازم
لو هبت الريح نسيما أبدا لم يتعوذ من أذى السحائم
خذياحسودى بين جنبيك جوى يرمى إلى قلبك بالضرائم
واقنع فقد فتك غير خامل بالصقر أن تقرع سن نادم
لازلت منحوس الجزاء قلقا لوادع وسهرا لنـــائم

ويعتبر مدح مهيار للعلويين وأئمتهم خطوة نحو اعتناق الأسلام ولا شك أنه قد أثر فى نفسية مهيار ملازمته للشريف وشدة اتصاله بالملوك والأمراء من الفرس المتشيعين لعلى ، وحياته فى عصر وجو كلهما تشيع ، والظاهر أنه كلما تقدمت سنه ازداد تعلقه بعلى وآله وأشرب قلبه حبهم فـكان هـذا بمثابة تمهيد لاعتناقه الدين الأسلامى

وها نحن نورد عليك شيئا من قصيدة نظمها فى المحرم شهر التعازى من عام ٣٩٢ أى قبل إسلامه بسنتين أعنى تلك القصيدة التى أولها :

يزوّر عن «حسناء» زورة خائف تعرض طيف آخر الليل طائف

وهى تلك القصيدة العصماء التى يرثى بها الأمام على بن أبى طالب ويمدحه ويذكر شغفه بمدح آل بيته

فهذا هو يقول :

يذكرنى مثوى على كأننى سمعت بذاك الرزء صيحة هاتف
ركبت القوافى ردف شوقى مطية تخب بجارى دمعى المترادف
إلى غاية من مدحه أن بلغتها هزأت بأذيال الرياح العواصف
وما أنا من تلك المفازة مدرك بنفسى ولو عرضتها للمتالف
ولـكن تؤدى الشهد أصبع ذائق وتعلق ريح المسك راحة دائف
بنفس من كانت مع الله نفسه إذا قل يوم الحق من لم يجازف
إذا ماعزوا ديناً فآخر عابد وإن قسموا دينا فأول عاكف
كفى يوم بدر شاهدا وهوازن لمستأخرين عنهما ومزاحف

وخيبر ذات الباب وهى ثقيلة ال مرام على أيدى الخطوب الخفائف

وفى هذه القصيدة يقول مخاطبا عليا

أسر لمن والاك حب موافق وأبدى لمن عاداك سب مخالف

وأعزى بك الحساد إنك لم تكن على صنم فيما رووه بعاكف

وكنت حصان الجيب من كل غامر كذاك حصان العرض من فم قاذف

ثم يقول مشيرا إلى تعلقه بعلى وآله رغم كونه من الفرس ورغم ما يلاقيه من حساده من اللوم والتأنيب :

وما نسب ما بين جنبي تالد بغالب ود بين جنبي طارف

وكم حاسد لى ود لو لم يعش ولم أنابله فى تأبينكم وأسايف

تصرفت فى مديحكم فتركته يعض على الكف عض الصوارف (١)

هواكم هو الدنيا وأعلم أنه يبيض يوم الحشر سود الصحائف

وفى هذا المعنى يقول من قصيدة أخرى مخاطبا الحسين بن على :

كأن ضريحك زهر الربيع هبت عليه نسيم الخريف

أحبكم ماسعى طائف وحنت مطوقة فى الهتوف

وإن كنت من فارس فالشـــريف معتلق ذكره بالشريف

(٤) إسلامه واعتناقه مذهب غلاة الشيعة

فى سنة ٣٩٤ خطا مهيار الخطوة الأخيرة نحو الأسلام فاعتنق ذلك الدين الحنيف ويقال إن ذلك تم على يد أستاذه الشريف الرضى ، ولكى يكون ثابت العقيدة محافظا على مبدئه وولائه لأستاذه جامعا بين تعصبه للفرس وتشيعه لعلى وآله ، لم يجد بدا من أن يتخذ مذهب أستاذه ومذهب الملوك والأمراء من أبناء جنسه مذهبا له ذلك هو مذهب الشيعة العلويين المغالين فى تشيعهم الذين يقولون بأحقية على للخلافة وكون الخلفاء الثلاثة الأول أبى بكر وعمر وعثمان غصبوه حقه فيها وغلبوه على أمره

(١) الصوارف : الأنياب

وإنما سرت هذه العقيدة إلى الفرس وانتشرت فيما بينهم لأسباب سياسية من جهة ولكونهم من جهة أخرى إرستقراطيين يعتقدون أن الخلافة كالملك من الأمور الوراثية وراثة إلهية التي يرثها الابن عن أبيه ، فهم يقولون إن الخلافة بطبيعة الحال انتقلت إلى على بالوراثة لأن النبي (ص) توفى ولم يعقب ولدا وكان على ابن عمه وزوج ابنته أقرب الناس إليه لذلك كان أحق الناس بالخلافة

والعرب لم يكونوا يرون هذا الرأى لكونهم ديموقراطيين يقولون بأن الخلافة لمن هو أقدر على القيام بها وبشؤونها ولا ينالها إلا من وقع الاختيار عليه وبويع مبايعة صحيحة

هذه هى مسألة من المسائل السياسية الكبرى التى كثر النزاع فيها وسالت فى سبيل حلها الدماء ونطقت فى الدفاع عنها الألسنه وجرت الاقلام فى ترجيح رأى على الآخر ، وقد كان مهيار بحكم نشأته وبيئته ممن ذهب مذهب الارستقراطيين وإنك لتجد رأيه ظاهرا فى شعره خاليا من المواربة والمواراة فهو لا ينطق بلسانين ولا يقابل الناس بوجهين فى هذه المسألة

وأنت ترى أنه لم يصل لهذا الرأى طفرة ولكنه قال به بعد أن نضج عقله وخاض فى الموضوع خوضا عميقا ولاكه لسانه مرارا عديدة وهو مع ذلك لم يأت بغريب ولم يكن إلا جاريا على مذهب أهل عصره ومبدأ بنى جنسه ومن ربطتهم به رابطة الدين والجنسية والوطنية ، وأول قصيدة نظمها بعد أن اعتنق الأسلام هى التى كتب بها إلى الكافى الأوحد يبشره ويمدحه ويهجن قومه بسفه ماهم عليه ومعايبه أعنى بذلك القصيدة التى أولها :

دواعى الهوى لك ألا تجيبا هجرنا تقى ماهجرنا ذنوبا

والتى فيها يقول مخاطبا الكافى الأوحد :

وبلغ «أخا صحبتى» عن أخيك عشيرته نائيا او قريبا
تبدلت من ناركم ربها وخبث مواقدها الخلد طيبا
حبست عنانى مستبصرا بآية يستبقون الذنوبا

نصحتكم لو وجدت المصيخ وناديتكم لو دعوت المجيبا
أفيئوا فقد وعد الله فى ضلالة مثلكم أن يتوبا
وإلا هلموا أباهيـكم فمن قام والفخر قام المصيبا
أمثل محمد المصطفى إذا الحكم وليتموه لبيبا
بعدل مكان يكون القسيم وفصل مكان يكون الخطيبا
وثبت إذا الأصل خان الفروع وفضل إذا النقص عاب الحسيبا
وصدق بأقرار أعدائه إذا نافق الأولياء الكذوبا
أبان لنا الله نهج السبيل ببعثه وأرانا الغيوبا
لئن كنت منكم فأن الهجين يخرج فى الفلتات النجيبا

وإنك لتعثر فى ديوان مهيار على كثير من القصائد التى يؤيد فيها تشيعه ويحمل على الصحابة حملات قاسية ويقيم عليهم الحجة بعد الحجة فمن ذلك قصيدته التى أولها :

فى الظباء الغادين أمس غزال قال عنه مالا يقول الخيال

وفيها يقول (مشيرا ليوم السقيفة يوم أن تفاخر المهاجرون والأنصار بعد وفاة الرسول (ص) وأخذ كل فريق يبين أحقيته للخلافة وكان على بن أبى طالب غائبا ، شغله عن الحضور تجهيز جثة النبى للدفن)

حملوها يوم السقيفة أوزا را تخف الجبال وهى ثقال
ثم جاءوا بعدها يستيقلو ن وهيهات عثرة لا تقال

وفيها يقول مشيرا إلى مقتل على وابنيه الحسن والحسين :

يا لقوم إذ يقتلون عليا وهو للمحل فيهم قتّال
ويسرون بغضه وهو لاتقـبل إلا بحبه الأعمال
ولسبطين تابعيه فسمو م عليه ثرى البقيع يهال
درسوا قبره ليخفى عن الزو ار هيهات كيف يخفى الهلال
وشهيد بالطف أبكى السمـوات وكادت له تزول الجبال

ياغليلى له وقد حرم المـا ء عليه وهو الشراب الحلال

وفى هـذه القصيدة يشير إلى اعتناقه الأسلام وما ناله من الخير والنعمة بعد ذلك فيقول :

لهف نفسى يا آل طه عليكم لهفة كسبها جوى وخبال
وقليل لـكم ضلوعى تهتز مع الوجـد أو دموعى تزال
كان هذا كذا وودى لـكم حسـب ومالى فى الدين بعد اتصال
وطروسى سود فـكيف بى الآ ن ومنكم بياضها والصقال
حبكم فك أسرى من الشر ك وفى منكبى له أغـلال
كم تزملت بالمـذلة حتى قمت فى ثوب عزكم أختال
بركات لـكم محت من فؤادى ما أحـل الضلال عم وخال

ومن حملاته العنيفة التى يحملها على الخلفاء الثلاثة وعلى بنى أمية ما قاله فى قصيدة من غرر قصائده مطلعها :

سلا من سلا من بنا استبدلا وكيف محا الآخر الأول
(فارجع اليها إن شئت)

وقد ذهب مهيار فى سب الصحابة وتعنيف الخلفاء الثلاثة مذهبا أنـكره عليه المسلمون حتى أن أبا القاسم بن برهان قال له يامهيار انتقلت بأسلامك فى النار من زاوية إلى زاوية قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك كنت مجوسيا فأسلمت فصرت تسب الصحابة

وليس هناك طعن أشد إيلاما من قوله فى قصيدة :

وقائل لى على كان وارثه بالنص منه فهل أعطوه ما منعوا
فقلت كانت هنات لست أذكرها يجزى بها الله أقواما بمـا صنعوا
أبلغ رجالا إذا سميتهم عرفوا لهم وجوه من الشحناء تمتقع
توافقوا وقناة الدين مائلة فحين قامت تلاحوا فيه واقترعوا
أطاع أولهم فى الغـدر ثانيهم وجاء ثالثهم يقفو ويتبع

ثم هو يقيم الحجج والبراهين على ضعف رأى الصحابة وبعدهم عن الحق فيقول :

قفوا على نظر فى الحق نفرضه والعقل يفصل والمحجوج ينقطع
بأى حكم بنوه يتبعونكم وفخركم أنكم صحب له تبع
وكيف ضاقت على الأهلين تربتة وللأجانب من جنبيه مضطجع
وفيم صيرتم الأجماع حجتكم والناس مااتفقوا طوعاو لا اجتمعوا
أمر على بعيد من مشورته مستكره فيه والعباس يمتنع
وتدعيه قريش بالقرابة وال أنصار لا رفع فيه ولا وضع
فأى خلف كخلف كان بينكم لولا تلفق أخبار وتصطنع

فأنت ترى من هذا أن حجته قائمة على الأحقية بالقرابة حسب ما يرى الفرس

وفى الأبيات الآتية يشير إلى يوم الغدير (غدير خم) وهو غدير بين مكة والمدينة قيل أن النبى (ص) خطب الناس عنده وأمسك بيد على وقال « من كنت مولاه فعلى مولاه » فهذا حيث يقول :

واسألهم يوم خم بعد ماعقدوا له الولاية لم خانوا ولم خلعوا
قول صحيح ونيات لها نغل لا ينفع السيف صقل تحته طبع
إنكارهم ياأمير المؤمنين لها بعد اعترافهم عار به ادرعوا
ونكثهم بك ميلا عن وصيتهم شرع لعمرك ثان بعده شرعوا
تركت أمرا ولو طالبته لدرت معاطس راغمته كيف تجتدع

ومن قصائده الحافلة الجامعة التى يذكر فيها مناقب على وكرامته ويعدد مآثر العلويين ومواقفهم الشريفة ويعيب على الصحابة خذلانهم لعلى ، وعلى بنى أمية مقتل الحسين ويفتخر بأسلامه واتصاله بالعلويين مطولته التى أولها :

إن كنت ممن يلج الوادى فسل بين البيوت عن فؤادى مافعل

وهى قصيدة طويله تربو على مائة بيت وعشرة ابيات نظمها بعد أن أدركه الشيب إذ فيها يقول متحسرا على أيام الشباب ناقما على أيام المشيب وواقفا بنفسه موقف الواعظ

أين ليالينا على الخيف وهل … يرد عيشا بالحمى قولك هل
ماكن إلا حلما روّعه الصبح … وظلا كالشباب فانتقل
ماجمعت قطر الشباب والغنى … يدامرىء ولا المشيب والجذل
ياليت ماسود أيام الصبا … اعدى بياضا فى العذارين نزل
ماخلت سوداء بياضى فصلت … حتى ذوى أسود رأسى فنصل
طارقة من الزمان أخذت … أواخر العيش بفرطات الأول
قد أنذرت مبيضة ان حذرت … ونطق الشيب بنصح لو قبل
ودل ما حط عليك من سنى … عمرك أن الحظ فيما قد رحل
كم عبرة وأنت عن عظاتها … ملتفت تتبع شيطان الأمل
ما بين يمناك و بين اختها … إلا كما بين مناك والأجل
فاعمل من اليوم لما تلقى غدا … أو لا فقل خيرا توفق للعمل

وفى هذه القصيدة يصف آل البيت بقوله :

الطيبو ن أزرا تحت الدجى … الكائنون و زرا يوم الوجل
والمنعمون والثرى مقطب … من جدبه والعام غضبان أزل(١)
خير مصل ملكا وبشرا … وحافيا داس الثرى ومنتعل
هم وأبوهم شرفا وأمهم … أكرم من تحوى السماء وتظل

ويشير إلى الحوادث التاريخيه التى حدثت أيام الخلفاء الثلاثه وماكان من الفتن والحروب بعد ذلك بقوله :

وهبهم تخرصا قد ادعوا … أن النفاق كان فيهم و بطل
فما بالهم عادوا وقد وليتهم … فذكروا تلك الحزازات الأول
وبايعوك عن خداع كلهم … باسط كف تحتها قلب نفل
ضرورة ذاك كما عاهد من … عاهد منهم أحمدا ثم نكل (٢)
وصاحب الشورى لماذا ترى … عنك وقد ضايقه الموت عدل

(١) أزل : شديد ضيق (٢) نكل : نكص وجبن

والأموى مـــاله أخـــركم وخص قوما بالعطاء والنفل (١)
وردهـا عجماء كسروية يضاع فيها الدين حفظا للدول
كذاك حتى أنكروا مـكانه وهم عليك قـدموه فقبــل
ثم قسمت بالســواء بينهـم فعظم الخطب عليهم وثقــل
فشحـذت تلك الظبا وحفرت تلك الربى وأضرمت تلك الشعل
مواقف فى الغدر يكفى سـبة منها وعارا لهم يوم الجمــل
وما الخبيثان ابن هند وابنه وإن طغى خطبهم بعد وجــل
بمبــدعين فى الذى جاءا به وإنمـا تقفيا تلك الســبل
إن يحسدوك فلفرط عجزهم فى المشكلات ولمـا فيك كمـل

وفيها يذكر ولاءه لآل البيت وعكوفه على مدحهم رغم معارضة النـاس واستنكارهم :

عاديت فيك الناس لم أحفل بهم حتى رمونى عن يد إلا الأقل
تفرغوا يغـترفون (٢) غيبة لحمى وفى مدحك عنهم لى شغل
عدلت أن ترضى بأن يسخط من تقـله الأرض عليك فاعتـدل
ولو يشـق البحر ثم يلتقى فلقاه فوقى فى هواك لم أبــل
تضمنى من طرفى فى حبلـكم مودة شاءت ودين مقتبــل
فضلت آبائى المـلوك بكم فضيلة الأسلام أسلاف الملل

(للبحث بقية)

---

(١) النفل : الهبـه (٢) يغترفون : يأكلون

حرية المرأة فى الأسلام

(كتبت خصيصا لمجلة المعرفة)

بقلم الكاتبة الذائعة الصيت

مدام دى سان بوا

رئيسة تحرير مجلة فينكس

طلبنا إلى حضرة الكاتبة المعروفة مدام دى سان بوا رئيسة تحرير مجلة فينكس التى تصدر بالفرنسية فى القاهرة . أن تتفضل بالتحدث إلينا عن رأيها فى المرأة الشرقية عامة ، والمرأة المصرية خاصة ، وعما إذا كانت — باعتبارها ممن درسوا الحياة الشرقية دراسة تامة — ترى رأى القائلين بالسفور ، أم رأى القائلين بالحجاب . وكذلك رأيها عن مسألة الزواج ، وما يتصل به من شؤون

فأمهلتنا حتى تكتبه ، وانتظرنا حتى بعثت إلينا بالموضوع الذى يرى القراء تعريبه بعد ؟

المحرر

***

كم من الكلمات المعسولة ، تفعل فى النفوس فعل الخمر . تظهر بالمظهر الجميل ، والصورة الخلابة للمثل العليا ، التى تبث فى أذهان الناس روح الغرور والتخيل والأوهام . وخصوصا فى أذهان الناشئة من الشبان والشواب

فمن أمثلة تلك الكلمات : كلمات الحرية ، والمساواة ، والتقدم ، والمدنية وغيرها . . .

ونحن الآن سنبحث عن تلك الكلمة الأولى ، وأعنى بها كلمة الحرية فحسب

***

الحرية . هى هذه الأمنية السامية ، وتلك الأنشودة العذبة ، وذلك اللحن المستعاد ، أوهي المثل الأعلي للفرد الذى يأخذ الأنسان بلفظه الساحر فيدفعه

إلى الغرور بنفسه . والزج بها حتى تهوى به إلى الحضيض . والحق هو أن تلك الأمنية هى التى تحفر الحفرة العميقة ، التى لاقيامة للانسان منها ، إلا حين يتيقظ شعوره ، ويسمو تفكيره . أو على الأقل . حين يفجأه نور الحقيقة الساطع ، فتجعله المفاجأة وجها لوجه أمام الأمر الواقع . وكثيرا ما يكون الواقع مما لا يسر نفوسنا أو ترتضيه عقولنا . على أنه مهما يكن من شىء ، فأنا مرغمون على قبوله إرغاما

من هذا . نستطيع إذن ، أن نقول . إن الانسان ليس له نصيب من الحريه مطلقا . وكيف يكون حرا فى حياته ، وهو نفسه مقيد الحرية سواء فى مولده أو مماته ؟ وكيف تتحقق له تلك الأمنية العذبة ، وهو نفسه لا يعرف منها غير القشور

وإذا أردنا البحث من الناحية الاجتماعية ، نجد أن القيود التى قيدت بها حرية المجتمع بشطريه ، واحدة فى كل حال من الحالات الاجتماعية ، وبتعبير أدق ، نرى أن تلك القيود ، هى بذاتها ، الارادة السامية ، والقوة المتسلطة على الوجود الكلى نفسه

والحرية ، إن هى إلا نتيجة إحساس بالشخصية ، أو نتيجة شعور بالفردية تخلصت من بعض قيود دينية أو اجتماعية

ولقد انبعث فى الغرب ، هذا النوع من الحرية ، حيث ظهر فيه بأبهى المظاهر الخلابة ، وأجمل الصور الخداعة . ولهذا ارتكب تحت ستاره ، كثير من المظالم الفردية المروعة . ووقع فى ظله كثير من الأخطاء الأخلاقية المفجعة ولقد صار هذا النوع الذى يختفى تحت المظاهر الخلابة - سما يسرى فى جسم الانسانية ، حتى يهلكها تدريجيا . وهذا هو مانشاهده فى هذا العصر نفسه

وقد اندفع الغرب بذلك النوع اندفاعا جنونيا ، وانساق بشره المحقق ، انسياقا تاما ، حتى أضحى معروفا بذلك دون غيره

وهذا الغرب نفسه هو الذي جلب إلي الشرق هــذا العلم الخداع (علم



(صورة مدام دى سان بوا صاحبة المقال)

الحرية) . الذى يستر بين ثناياه شر الأخطاء وأشد المصائب

ولقد ضل به كثيرون فى الشرق ، متناسين تقاليده التى كانت سر عظمته وسبب روعته ، والتى ليست - كما يعتقد أو يدعى البعض - سبب نومه . ذلك النوم الذى أراه فى الحق ليس إلا نوما عاديا لجنس البشرية التى تخضع بطبيعتها لحكم القوانين الطبيعية ، من ليل ونهار . وكما أن الظلام هو ليل الطبيعة ، كذلك لابد للمخلوقات من ليل تتمثله فى النوم

ولو فرض أن ثمة فائدة تعود على الشرق من تلك اليقظة التى أرغمه عليها الغرب . فليس يستنتج من ذلك . وجوب اتباعه وتقليده ومحـا كاته .

قد يسألنى سائل فيقول : وكيف ذلك ؟

نقول إن السبب . هو ماتولد عن تلك الانقلابات أو عن تلك العدوى السياسية ، والاجتماعية ، والفلسفية ، والفنية - فى الشرق من عدم التوازن ، الذى كان سببه غرابة تلك الأفكار عنه

ألم ينشأ عنها أن بعد الناس عن القرآن تدريجيا ؟ والقرآن هو هذا الكتاب الكريم الكامل . الذى لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . سواء ذلك فى أحكام الفرد والجماعة . أو فى النفس ، والروح ، والجسد . أو فى علاقة الأنسان بربه وعلاقته بالناس ، وعلاقته بنفسه فى حياته الخاصة والعامة . . . الخ

والمرأة تعتبر فى كل زمان ومكان القطب السالب ، الغـــير فعال . ويعتبر الرجل القطب الموجب الفعال ، ولكن باتصالها بعضهما ببعض . يتمم كل منهما عمل الآخر . ولهـذا تعتبر المرأة دائما ، الحارس اليقظ الأمين على التقاليد التى تنعكس منها التقاليد الضرورية ، المعهود بها إلى الرجل فى الحياة الخارجية

وقد تأثرت - نوعا ما - المرأة المسلمة المتحضرة باتصالها بالمرأة الغربية . فأصبحت هى الأخرى تحلم بالحرية وتغبط أختها التركيـة على انتقالها من الحريم إلى صالات الرقص ، وتعلم فنونه ، وتناول شراب (الكوكتيل) بدل شراب الورد

وفى فرنسا يظهر لها غريبا جدا ، أن المرأة الفرنسية لاتذهب إلى أماكن اللهو الكثيرة ، مثل «المونمارتر» و «الفولى برجير» بينما لا يفوتها اقتناء أحدث الملابس لآخر طراز (الموده) . فتستبدل فى وقت قصير ملابس غالية القيمة بأخرى تساويها إن لم تكن أقل من الأولى متانة وتحملا

و إذا بحثنا مسألة المرأة من ناحية الطراز (الموده) يكون بحثنا سطحيا فى الواقع . وقد أصبح الطراز بتغيره المستمر ، وتبدله الكثير ، واهتمام كل النساء طول حياتهن به — سواء كن صغيرات أو كبيرات ، قبيحات أو جميلات — بل وعدم ازدراء الرجل له بسكوته عنه . أصبح هذا الطراز يعد الطابع المشين للزمن والرمز المزرى للعصر ، فيقال عصر الموده

والحق أن التغيير ، والتبديل ، والتخيلات هى الأعـــداء الخبيثة اللدودة للثبات ، والمبادئ ، والتقاليد

وإذا كان المؤثر فى الأنسان ، هو ما يسمى بالحياة الداخليه ، فلا ينكر أحد أن مظهر الأنسان ـ الذى يرسمه لنفسه تبعا لقوانين التقليد ـ له تأثيره البين عليه . وطريقة الأوضاع ليست بدون قيمة فى الحق إذ أن الأنسان فى نهاية تقليده لها ، لابد ، وأن يشبه ما حاول الظهور به منها

وتقليد المرأة التى من أمة معينة ، لملبس أختها من أمة أخرى ، أمر له أهميته ، حتى ولو لم يضع الكتاب المقدس لتلك الأمة أحكاما للملبس . على أن هذه الحال . . (عدم وضع الأحكام) ليست فى القرآن ؛ الذى وضعها ، وأحكم وضعها تماما

يتضح من هذا . أن تمرد المرأة على الملبس — وقلما تكون متعلمة تعليما كاملا — يدل على أنها تعانى ثورة فكرية عميقة . ولكن لا ننسى أيضا أن تلك الملابس التى تصل فى قصرها إلى حد فاضح ، أمر مؤلم جدا للمرأة المسلمة ، أكثر من رفعها للنقاب ، وقد أوصى الرسول العربى بالحجاب . وما كان ذلك منه تفضيلا ، أو مراعاة الطراز الأخير . ولكن أليس يعد خرافة ، أن تتبع

المرأة المسلمة عكس ما أوصى به الرسول بوضعها على الفم قطعة رقيقة شفافة من (الموسلين) تكاد لاتخفى شيئاً مما أمر به أن يستر ؟

ففى رسالته يعلمنا أن النساء يجب عليهن اتباع الحقائق . والحقائق المقصودة من روح الآيات القرآنية الخاصة بملابس النساء ، لا تعنى إلا مايلائم الحشمة ، و يتفق والبساطة ، بما لا يوقظ فى الرجال غرائزهم الجنسية

وطبيعيا كان النقاب يلبس فى أيام النبى (ص) وقد كان المقصود منه حماية الوجه ، ووقاية العينين من لفحات الشمس ، وذرات الرمال المتناثره . وقد كان هذا النقاب موضع عناية النبى (ص) الذى ما كان ليرتضى أن يرى هذا اليوم الذى تخطر فيه الفتيات المسلمات فى الشوارع بقطعة رقيقة من (الموسلين) الشفاف والتى يضعنها على ثغورهن باسم النقاب ظلماً . بينما لاتخفى ثيابهن القصيرة شيئاً من سيقانهن الجميلة المغرية ، وقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن ، إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ماملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الأربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » (١) وقوله « ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما (٢) »

السفور

وليست مسألة السفور بذات قيمة فى نفسها . أما الشىء الأكثر أهمية فهو روح التعاليم ، التى تأمر بارتداء الملابس المحتشمة التى لا تثير فى الرجل غريزته الجنسية

(١) راجع سورة النور آية ٣١ (٢) راجع سورة الأحزاب آية ٥٩

تلك فى نظرى هى النقطة الجوهرية . وقد تكون لهيئة المرأة التى تبدو بها ولنظراتها المثيرة ، ومشيتها الخليعة — أكثر أهمية فى عملها من عمل الملابس نفسها . وأرانى مضطرة لأن أصرح بأن المرأة المسلمة المتحضرة تبدو الآن فى هيئة مثيرة جدا

ويظهر أن امرأة القرية لم تتأثر بهذا إلا قليلا ، وسوف لا تتأثر بالمرأة الغربية ، ولكنها ستقلد سيدتها هانم المدنية التى تتخذها كأنموذج عال تحتذيه

وقد افتتنت المرأة المسلمة بمظهر الحرية الكاذب الذى لأختها الغربية . وخصوصا منذ الحرب الأخيرة . ولم تحاول أن تكشف أو تدرك ما يستتر وراء هذه الحرية الجوفاء ، ولو حاولت المسلمة ذلك لرأت أنها تملك قسطا أوفر بكثير مما تملكه الغربية . فهى بفضل عناية النبى ، أصبحت مصونة ، وبعيدة عن متاعب الحياة ، ومقاصد الرجل السىء . وكثير من الآيات القرآنية ، يمنع هذا الاجحاف الواقع من الرجل على المرأة . ولنقارن الآن بين حقوق المرأة الغربية وحقوق المرأة المسلمة . ثم بعد ذلك نحكم حكما عادلا دون أن نخطىء القصد ؟

للبحث بقية

ترتيب حروف الهجاء

بحث علمى تاريخى

للأستاذ حسن عبد الجواد المحامى

يقرأ المبتدىء حروفا يحفظها مرتبة عن ظهر قلب ترتيباً يلاحظ معه نغمة يرتاح إليها سمعه ، لأن الحروف قد كونت جماعات متشابهة أحرف كل منها ، فأذا بدأ ينطق حرفا تلاه حرف آخر أو أكثر لا يختلف عنه كثيرا ، فأن هو قال (صاد) قال بعدها (ضاد) و إن قال (باء) أردفها (بتاء) ثم (ثاء) وهكذا حتى يقول (ياء) و إذا نحن ألقينا نظرة على لوح طفل صغير مبتدىء رأينا معلمه قد قسم له الأحرف الهجائية تقسيما يراعى معه هذا النظام ، فيكتب له فى اللوح الأول (ا . ب . ت . ث) وفى اللوح الثانى (ج . ح . خ) وفى اللوح الثالث (د ذ ر ز) وفى الرابع (س . ش . ص . ض) وهكذا حتى ينتهى إلى (ى)

ولكن هذا الترتيب الذى تألفه اليوم ، لم يكن هو بعينه الذى قام قديماً ، بل كان هناك ترتيب آخر لا يزال قائماً بجانب الترتيب المألوف هو (أبجد . هوز . حطى . كلمن . سعفص . قرشت . ثخذ . ضظغ)

وهناك ترتيب ثالث راعى واضعوه مخارج الحروف وسنتكلم عليه تفصيلا مع الترتيبين السابقين : —

الترتيب الأول : — ترتيب أبجد هوز . . . الخ ، وعلينا قبل التكلم عن معنى هذه الألفاظ أن نذكر أنها خلقت (كما قال حفنى بك ناصف) فى عهد السريانيين والعبرانيين وغيرهم من الأمم الساميه

أما معنى هذه الألفاظ فمختلف فيه إلى حد كبير إذ قال جماعة ـ من بينهم هاشم الكلبى ـ إنها أسماء لأشخاص من العرب العاربة ـ محرفة قليلا ، وهم أبو جاد . وهواز ، وكلمون ، وسعفص ، وقريشات . وعلى أسمائهم وضعت الحروف الهجائية

ولكن لما كانت هناك حروف خارجة عن مجموع الحروف التى تكون تلك الأسماء ، لم يهمل العلماء أمرها ، بل جمعوها جماعة خاصة وسموها الروادف وهى (الثاء والخاء والذال ، والظاء ، والشين ، والغين



(صورة الأستاذ حسن عبد الجواد)

ولذلك نراهم قد حوروا فى الاسماء قليلا حتى جاءت مشتملة على حروف الروادف الستة ولذلك أصبحت (أبجد . هوز . حطى . كلمن . سعفص . قرشت . ثخذ . ضظغ) بدلا من (أبوجاد وهواز وكلمون وصعفص وقريشات)

وذكر بعضهم أن هذه الأسماء كانت لملوك هلكوا فى زمن شعيب عليه السلام

واستدل بعضهم على صحة روايتهم بقصيدة رثائية قالتها أخت أحدهم وهو (كلمون) جاء فيها

(كلمون) هد ركنى هلكه وسط المحله
سيد القوم أتاه الشحنف ثاو وسط ظله
جعلت نارا عليهم وأراهم كالمضمحله

وأنكر علما العصر الحاضر أن هذه الألفاظ أسماء لأشخاص ولذلك نرى أستاذنا الكبير حفنى بك ناصف يقول إنها ألفاظ لم يقصدمنها إلا جمع الحروف فى كلمات سهلة الحفظ وليست أسماء أشخاص كما قيل

و إنى أرى أن الظاهر يؤيده فى رأيه خصوصا وأن من قال بالرأى الآخر لم يدل بسند يصح أن يرتكز عليه ولو كان قولهم صحيحا لقالوا أبجد .... كلمون .... الخ بدلاً من قولهم أبجد .... كلمن .... الخ

الترتيب الثانى : ـ تحرى فيه واضعوه ـ كما سلف قلناه ـ مخارج الحروف ابتداء من الصدر إلى الشفتين . (راجع تاريخ الأدب لحفنى بك ص ٣٥ وما بعدها)

وهـذا أساس صالح لترتيب الحروف وضعه ثلاثة من كبار العلماء هم الخليل (فى كتاب العين) وسيبويه وابن سيده (فى المحكم) و إن اختلف ترتيب كل من هؤلاء الثلاثة عن ترتيب زميليه إلا أن خلاصة ترتيباتهم هكذا :

(ا و ى . حروف المد ـ ه ع ح غ خ ق ك ج ش ى ض ل ر ن ط د ت ص س ز ظ ذ ث ف ب م و)

الترتيب الحديث . . . ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ى .

هو الترتيب الذى نألفه والذى اعتبره أصحاب الصحاح ، والقاموس ولسان العرب وجاء به نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر فى عهد عبد الملك بن مروان (يراجع انتشار الخط العربى ص ٢٤ وأساس ماجاء فيـه فى كتاب حياة اللغة العربية ص ٣٧) .

جاء هـذا الترتيب جامعا الحروف المتشابهة معا ، فالباء بعدها تاء ثم ثاء والطاء بعدها ظاء والعين بعدها غين وهكذا كما سبق بيناه فى صدر هذا البحث

ولـكنا إذا وقفنا البحث خرجت حروف من غير شريك كالألف مثلا إذاً لمـاذا هم جاءوا بها فى مكانها ؟ وهل لذلك من أساس ؟

عللوا الأمر بأسباب ما كانوا ليهملوا فيها فضل الترتيب الأول

السبب الأول : بدىء بالألف لأنها أول أحرف أبجد

السبب الثانى : الهاء أخرت للاتيان بها مع أحرف العلة لأنها تشبهها

السبب الثالث : الزاى وضعوها فى مكانها مع أحرف الصغير

السبب الرابع : الكاف واللام والميم والنون أتت متعاقبة لأنها أحرف (كلمن) الواردة فى الترتيب الأول

وإذا نحن قلنا لهم لماذا وضعتم جماعة الجيم والحاء والخاء قبل جماعة الدال والذال ؟ قالوا لأن الجماعة الأولى أولها جيم والثانية أولها دال والجيم قبل الدال فى أحرف أبجد .

أما ترى أنهم احترموا — إلى حد كبير — الترتيب الأول ؟

وأرى فى النهاية أن الترتيب الحالى هو وليد ظروف لا يعلمها أحد وأنه ترتيب تاريخى طبيعى ليس ليد زيد أو عمرو دخل فى أحكامه أو فضل فى وضعه وأختتم تلك الكلمة بملاحظة لها أهميتها

هى أنه ورد فى كتاب الله الكريم آية تجمع الحروف الهجائية من أولها الى آخرها وهى « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما »

فأذا نحن فتشنا فى تلك الآية أخرجنا جميع الحروف الهجائية كاملة ولكنها غير مرتبة حسب أحد الترتيبات الثلاثة التى أوردناها .

وإنا لا نعرف السر فى ذلك ولكنا نستنتج منها بلاغة عظيمة نشاهدها فى كل آية من آيات القرآن الكريم فتبارك الله أحكم الحاكمين ؟

حسن عبد الجواد

رحلة ابن بطوطه

تلخيص وتعليق

الأستاذ محمد اسماعيل ابراهيم

المدرس بمدرسة الظاهر الأميرية

ابن بطوطه مولده ونسبه :

هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم الملقب بشمس الدين ابن بطوطه الرحالة الشهير، الذى طاف الأرض معتبرا وطوى الأمصار مختبرا

ولد بطنجة الواقعة على مياه بوغاز جبل طارق ببلاد المغرب سنة ٧٠٣ هجرية الموافقة سنة ١٣٠٤ ميلادية

ويعتبر ابن بطوطه أحد من أنجبتهم بلاد المغرب من علماء وأدباء وقواد وهو معاصر لابن خلدون صاحب القدم الراسخة فى علوم الاجتماع . وترجع شهرة ابن بطوطه إلى رحلته الطويلة التى جاس خلالها الاميراطورية العربية وسار الى أبعد حدودها شرقا فى بلاد الصين . وقد دون أخبار هذه الرحلة فى كتابه المسمى «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»

أهمية كتاب تحفة النظار :

لقد كان لكتاب ابن بطوطه الأثر البعيد والفضل الأكبر، فى كشف الستار عن أخبار أقوام عاشوا بالدنيا القديمة ، ولم تتيسر لهم أسباب التقارب والتعارف

والكتاب مرجع تاريخى لنواح اجتماعيه فى مختلف الأقطار التى زارها ومرآة جلية لهذا العصر ، كما أنه أفاد من الناحية الجغرافية كثيرا . ومما يدل على أهمية الكتاب ونفاسته ، أنه ترجم إلى اللغات الأجنبية لأن واضعه ثقة يحدثك بأمانة عما عاينه من حياة الناس وآدابهم وعلومهم وصناعاتهم والعادات المتفشية فيهم

ينشر لك الكتاب هذه العلومات الكثيرة الطلية فى أسلوب روائى ونكات

ظريفة تدل على لباقة ابن بطوطة وخفة روحه وهو فى هذه الصور التاريخية الرائعة التى رسمها عن وصف المدن وأهلها ، يعطينا أوضح فكرة عن هذه الأيام الخالية التى كان ظلام القرون الوسطى سادلا أستاره الكثيفة عليها لصعوبة المواصلات وندرة الرحالين ، الذين يزجون بأنفسهم فى مجاهل الأرض المحفوفة بالمهالك . وإن كانت هناك طائفة تقضى عليها أعمالها أن تتنقل فى أنحاء هذه الأقطار التى تكلم عنها ابن بطوطة ، فهم التجار الذين قاموا بقوافلهم يقطعون الفيافى ويهبطون فى الأمصار . ولكنهم كانوا لا يهتمون بالتعرف إلى الحياة الفكرية أو العلمية أو حالة الطبقات التى لا تحتك بهم فى المعاملة . وذلك لأن ميلهم وفرقتهم لا يسمحان لهم بذلك . هذا فضلا عن أنهم لم يفكروا فى كتابه شئ يبقى على مر الأيام . بل كانوا يذيعون معلوماتهم بين عشيرتهم شفويا ، وهؤلاء يبالغون فى تصويرها حتى يخرجونها عن حقيقتها

لذا فأن كتاب تحفة النظار فى جملته ، يوضح للباحثين باجلى بيان ، الثقافة العامة الشائعة يومئذ . تلك الثقافة التى كان سداها ولحمتها الدين وآدابه وأحكامه ورجاله

ففى مواقفك الكثيرة مع ابن بطوطه فى رحلته ، تراه لا يتحدث إليك بأفاضة وإسهاب إلا عن العلماء والأولياء ومناقبهم ومقاماتهم العالية وماجرى له معهم من كرامات ، وماناله على أيديهم من بركات . ولا عجب فأن الدين فى هذا العصر كان ظاهر السلطان ، وله من الحكام والخاصة أعوان أى اعوان

نعم كان الدين ملء الأسماع والأبصار والقلوب ، فلا غرو أن يكون ابن بطوطة على دين ملوكه . فهو يملأ سيرة رحلته بذكر العباد والزهاد ، الذين حظى بشرف المثول بين أيديهم أو فى أضرحتهم فى القرى والأمصار ، وليس أدل على أن جوانحه كانت منطوية على شعلة متقدة من الصلاح ، من أنه وهو فى شرخ الصبا وريعان الشباب يترك أهله وعشيرته نازحا بنفسه عن وطنه وحيدا يقتحم الأخطار فى زمن لم تكن فيه غير الدواب والسير على الأقدام وسيلة للانتقال فى تلك المفاوز الواسعة المهلكة ، التى اجتازها لأداء فريضة الحج . واستمع إليه إذ يقول

« كان خروجى من طنجة مسقط رأسى، فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة أقبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، منفردا عن رفيق آنس بصحبته ، وركب كون فى جملته ، لباعث على النفس شديد العزائم ، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة ـامن فى تلك الحيازم »

فتخيل هذا الشاب الذى لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره ، كيف يخاطر بحياته الغاليه وتتملكه عاطفة الدين الشريفة لأداء فريضة الحج فى رحلة بعيدة الشقة ، لم يتزود لها إلا بأيمانه الصحيح ، ثم يقضى خمسة وعشرين عاما يجول فى القفار والأمصار وهو أينما ذهب يقابل بالترحاب ويشيع بالأجلال والأعجاب مما يدل على سمو شخصيته وعلو همته . وإلى القراء ملخص وتعليق على رحلات هذا السائح الظريف ، وماشاهد وعاين من عجائب الأسفار وغرائب الامصار

من طنجه إلى الاسكندرية

خرج ابن بطوطه من طنجة فى أيام الأمير سعيد بن أمير المؤمنين أبى يوسف ابن عبد الحق . وترى فى سياق الرحلة كثيرا من أسماء هؤلاء الحكام من عمال الموحدين . وقد لصق ابن بطوطة بهم الألقاب الضخمة الفخمة من ناصر الدين إلى حامى حمى الأسلام والى غير ذلك مما لاحصر له ، مما سنضرب عنه صفحا ولكننا أمام هذه الألقاب الدينية الكبيرة نشير هنا إلى ما كان لسلطة الحكام والولاة المحلية من أثر ظاهر فى بيئتهم ، لأن نظام الحكومة فى هذه البلاد الأسلامية كان على نمط الحكم العربى الذى تتمثل فيه السلطتان الدينية والزمنية إذ لم تكن هناك حكومات بمعناها الحاضر ملكية وجمهورية واستبدادية وما يتبع ذلك من نظم وتقاسيم إدارية الخ

. . . ووصل إلى تلمسان فالجزائر حيث يقص عليك أول ظلم رآه من عمال الموحدين وهو اغتصابه مالا ، كان أوصى به أحد التجار الذين ماتوا معه فى الطريق لرجل من القافلة يوصله لأهله ، ولعل حداثة ابن بطوطة وقتئذ وطهارة

قلبه هى التى جعلته يستعظم هذا الجرم الذى كان و لا يزال من شيم النفوس فى كل مكان وزمان

وقد أصيب ابن بطوطة فى الطريق بحمى ، فأشارعليه رفاقه أن يمكث فى بلدة (بجـايه) جتى يبرأ ، ولـكنه أبى مستعذبا أن يموت فى سبيل طاعة الله لأداء فريضة الحج ، وظل مسافرا حتى وصل الى قسنطينه فتلقاهم حاكم المدينة بالبشر وطلب إليه أن يخلع ملابسه لتغسل لأنها كانت قد اتسخت وكان بعضها خلقا فردت إليه ملابسه نظيفة ومعها أخرى جديدة ، وصر له فى أحد أطرافها دينار من الذهب ، فتقبل هذا الفضل مغتبطا وهو يعتقد أن هذا من نعم الله عليه ، وسار إلى مدينة بونه وأقام بها أياما ، وبعد ذلك انقطع أكثر من كان معه خوفا من الطريق ، إلا أنه تجرد للسفر مع فئة قليلة وأجهد نفسه فى المسير حتى أصابته حمى شديدة الوطأه هزل بسببها إلى درجة أنه كان يشـــد نفسه بعمامته فوق السرج لئلا يقع ، حتى وصل إلى تونس ، وهناك أقبل بعض الناس على من كانوا معه بالسؤال والسلام والأيناس ،وهو لا يسلم عليه أحد لأنهم لا يعرفونه ، فذرفت عيناه وحشة وألمـا ، وفى هذا دليل على إنسانيته ورقة قلبه

ولم يصف لنا ابن بطوطة هذه المدينة العظيمة إلا بوجود علمـاء أجلاء يجتمع بعضهم بالأهالى عقب صلاة الجمعة بجامع الزيتونة العظيم للوعظ والأرشاد والافتاء ، ولمـا كان العيد قد أظله هناك فهو يحدثك عن صورة تاريخية بديعة تلك هى احتفاء الحكام بالأعياد وخروجهم راكبين مطاياهم وحولهم الأهل وخواص المملكة ،مشاة على أقدامهم فى ترتيب عجيب ، فأين هذا المظهر الآن ؟ لقد قضت سنة التطور أن تندثر هذه الصور البديعة الرائعة وتحل محلها تقاليد أخرى هى الاحتفاء بالأعياد على صورة أخرى من اللهو والمرح أو نسيانها لأن اعباء الحياة وتكاليفها جعلت كثيرا من الناس لا يقيمون للأعياد وزنا

خرج بعد ذلك من تونس فى ركب ذاهب إلى الحجاز وكان قـــد تعين قاضيا ، ويدل هذا على ثقافة ابن بطوطة ، وسار الركب حتى بلدة سوسة ثم صفاقس

حيث عقد فيها على بنت أحد التونسيين ، ولم يشر إلى بلدة صفاقس هذه بكلمة من عنده ، بل تركنا بين قولين متناقضين لشاعرين أحدهما يمدح صفاقس قائلا :

سقيا لأرض صفاقس ذات المصانع والمصلى
محمى القصير إلى الخليج فقصرها السامى المعلى
بلد يكاد يقول حين تزوره أهـلا وسهلا
وكأنه والبـحر يحـسر تارة عنه ويمـلا
صب يريد زيارة فأذا رأى الرقباء ولى

بينا الآخر يذم قائلا :

صفاقس لاصفا عيش لساكنها ولاسقى أرضها غيث إذا انسكبا
ناهيك من بلدة من حل ساحتها عادى بها العاديين :الروم والعربا
كم ضل فى البر مسلوبا بضاعته وبات فى البحر يشكو الأسر والعطبا

وقول الشاعرين يعبر عن نفسية كل إنسان وعما يلاقيه من خير أوشر فى أى مكان ينزح اليه وما يصادفه فيه من نجاح أوفشل وتوفيق أوسوء حظ ولهذا قيل :

وكل مكان ينبت العزطيب

ثم وصل إلى قابس ومنها إلى طرابلس حيث وقعت مشاجرة بينه وبين صهره ، ففارق ابنته من أجله . وهذا من ظلم الدهر أن تؤخذ الزوجة بجريرة الأقارب ومع مضى القرون الكثيرة لازلنا نرى ونسمع هـذه المشاكل التى لم يفد أى علاج فى تلطيف حرمتها مع كثرة ما كتب وما اقـــترح لتهذيب الأخلاق وتثقيف العقول

ثم تزوج بعد ذلك بنتا لبعض طلبة العلم . هكذا قرأت فلا تدهش لأن عهدنا بطلاب الأزهر ليس ببعيد ، حيث كان بعضهم يناهز الأربعين أو الخمسين لاصقا بالأزهر فى حياة خشنة عسرة ، ولايخرج الواحد منه ليجنى ثمار ماحصل من علم إلا عند مايقارب الشيخوخة . ثم وصل بعد ذلك إلى الأسكندرية (يتبع)

في الأدب الغربي

الزوجـــــة

للكاتب الأمريكى واشنجتون ارفنج

تعريب

الأستاذ حسن شريف الرشيدى

المدرس بمدرسة الظاهر الأميرية

كنت دئما ألاحظ شجاعة النساء التى يقابلن بها تقلبات الدهر وضرباته . و يظهر أن تلك المصائب التى تثبط عزيمة الرجل ، وتجعله فى حالة يأس شديد تبعث فى هذه النفوس الحساسة كثيرا من الشجاعة والنبل . ولا شىء يؤثر على الأنسان أكثر من أن يرى هذه المرأة ـ التى كانت فيما مضى مثال الضعف والاتكال على زوجها والتى كانت تتأثر بأقل خشونة زمن تلألىء نجم زوجها فى الحياة ـ نراها قد سمت قواها العقلية فأصبحت هى المعين له عند أفول نجمه متحملة بثبات يدعو إلى الاعجاب أقسى ضربات القدر .

وكما تحمل ساق الكرم أوراقها الخضراء ، وتعلو حتى تصل بها إلى نور الشمس ، فأذاما هبت العاصفه وأرادت أن تعصف بتلك الساق ، نرى تلك الأوراق تحنو عليها أوتلتف حولها تمنع عن فروعها تأثير العاصفه . كذلك اختارت العناية الآلهية المرأة التى هى أنشودة الرجل فى ساعات مرحه لتكون عزاءه ومساعده فى الشدائد المباغتة . فترفع رأسه المنكسة وتجبر قلبه الكسير

ولقد كنت مرة أهنىء صديقا لى كان محوطا بعائلة سعيدة تربطها بعضها

ببعض أواصر الحب والاخلاص ، قال لى مرة وهو يشتعل حماسا . «أنا لا أرجو لك إلا أن تحصل على مثل سعادتى تلك ، فيكون لك زوجة وأطفال . فأذا كنت موفقا ، يساهمونك نصيبهم . وإذا اصطدمت والقدر ، كانوا لك خير سلوى وعزاء» . وفى الحق أنى لاحظت الرجل المتزوج يكون أكثر استعداداً لاستعادة مكانته فى الحياة من الرجل الأعزب . وذلك لأن الأول مدفوع إلى الجهاد بحاجيات هؤلاء المخلوقات المحبوبة التى تحيط به وتعتمد عليه كربّ لهم . وثمة ماهو أكثر من ذلك أهمية ، وهو شعور النفس بالطمأنينة والحب العائلى . فبينما لايجد خارج المنزل إلا اليأس والهوان فأنه لا يزال له فى داخله مملكة صغيرة قوامها الحب والولاء ، وهو ملكها . ذلك بينما الأعزب عرضة لأن يركن إلى الكسل وإهمال نفسه ، فيظن نفسه وحيدا مهجورا ، فيهبط قلبه إلى قرارة اليأس مثله كمثل القصر المهجور يزداد تداعيا وخرابا بابتعاد أهله وساكنيه عنه .

تعيد إلى ذهنى تلك الذكريات قصة عائلة شاهدت وقائعها بنفسى . فقد كان لى صديق عزيز يدعى (ليزلى) وقد تزوج بآنسة مهذبة جميلة . أتمت تربيتها وحياتها الأولى فى وسط مهذب راق . وإنه وإن لم تكن تمتلك ثروة ، فأن ثروة صديقى كانت تكفل لها حياة طيبة . وكان لايضن عليها مطلقا بما يزيدها متعة وسعادة ويؤدى لها كل كمالياتها التى تنشر جوا من السحر والجمال ، حول هذا الجنس اللطيف . قال مرة : « سأجعل حياتها كقصة خياليه » .

وقد جعل بينهما اختلافهما فى الصفات ارتباطا موفقا ، فكان هو شعرى العاطفة ، ذا خلق هادئ ثابت بينما كانت هى مثال المرح والحبور . فقد لاحظت عليه دائما ذلك السرور الهادئ الذى كان يلحظها به عند ماتكون معه فى المجتمع حيث تنشر فيه جواً من البهجة والحياة . وفى وسط الأعجاب بها من كل ناحية لا تقع عينها إلا عليه كأنها تطلب إليه وحده القبول والاستحسان . وعند ماتعتمد على ذراعه ، تجد التباين واضحاً وجميلا بين قوامها الرشيق وبين شخصه الطويل القوى . ويظهر أن نظرة الأخلاص التى ترمقه بها كانت تبعث فيه شعور

الأحساس بالظفر والفخر . فما أجملهما زوجين يقطعان طريقا كله ورود ممتلئين آمالا يبنيان عليها سعادتهما المقبله .

طوحت الأقدار بصديقى هذا ، وذلك لأنه عرض ثروته فى مشروعات واسعة ذات خطورة ، فلم يمض على زواجه شهور كثيرة حتى تتابعت عليه الخسائر المفاجئة فأصبح وكأنه لم يملك شيئا . وظل محتفظاً فى نفسه بحاله السيئة مدة ما ، إلا أن شحوب وجهه كان ينم على حقيقة حاله . وكانت حياته سلسلة آلام موجعه ومما جعلها صعبة الاحتمال حاجته إلى الابتسام دائما أمام زوجته ، فلم يكن فى وسعه أن يحطم آمالها بأن يسرّ إليها بحالته . ولكنها رأت بعـــين الحب التى تخترق الحجب سريعا ، أنه فى ألم مستتر . إذ لاحظت عليه نظراته الزائغة وتأوهاته الصامته . ولم تكن لتخدع بمحاولته الفاشلة فى ادعاء المرح . وقد حاولت جهدها أن تعيد إليه هناءه المفقود ولكنها لم تكن إلا لتزيد فى ألم نفسه . وكلما رأى منها مايزيده حباً لها كان تألم نفسه أشد ، وبخاصة عند ما يرى أنه سوف يسبب لها التعاسة والشقاء ، فكان يفكر فى أن تلك الابتسامة سوف تختفى بعد قليل من هذا الخد المورد ، وسوف لاتسمع بعد تلك النغمات العذبة من هذه الشفاه الرقيقة وسوف ينطفىء من الحزن ذلك النور المشرق الذى ينبعث من تلك العينين النجلاوين ، وسوف يتحطم ذلك القلب الذى كان يخفق بالسعادة ، بضنك الحياة المقبلة وشقائها .

وأخيرا جاء إلىّ يوما ما ، وقص على مابه ـ فى رنة حزن وأسى ـ حتى إذا ما انتهى من قصته سألته : « هل تعرف زوجك كل هذا » فأجاب وقد طفق يبكى وينتحب : « بحق الله إن كانت لديك بقية من الشفقة على فلاتذكر زوجى فان مجرد تفكيرى فيها يسوقنى للجنون » . فأجبته : « ولماذا لا تخبرها ؟ إنها لاشك سوف تعلم ذلك عاجلا أو آجلا . وربما بلغ إليها الخبر فى حالة مفزعة أكثر مما لو بلغتها إياه بنفسك ، لأن نبرات من نحب تخفف دائما من وطأة أشد الأخبار وقعا . أضف إلى ذلك أنك حرمت نفسك من مواساتها لك وحنانها عليك .

وليس ذلك فحسب . بل إنك عرضت للانحلال تلك الرابطة الوحيدة التى تربط قلبيكما بعضهما ببعض ، وهى المشاركة فى الشعور والتفكير . وسترى هى عاجلا أن شيئاً ألم بك يقض عليك مضجعك . والحب الصحيح لا يحتمل التحفظ والكتمان بل يشعر بضعف قيمته عند ماتخفى عنه أحزان محبوبه .

فقال : « آه ياصديقى ! ماأصعب التفكير فى الطعنة التى سأصيبها به فتحطم آمالها المستقبلة . كيف تنهد نفسها الشامخة ساعة أن تعلم أن زوجها لا يملك قوت يومه ؟ وأنها سوف تحرم كل مباهج الحياة ومسرات المجتمع ، وتنزوى معى فى ظلمة الفقر والحاجة ؟ وأنى سوف أنتزعها من عالم البهجة الدائم الذى كانت تخطر فيه ـ نور كل عين ـ وأعجاب كل قلب ؟ فكيف تتحمل مثل هذه الفقر وقد شبت محاطة بكل أنواع الترف والثروة ؟ وكيف تتحمل هجر المجتمع وقد كانت معشوقته ؟ إن ذلك ليحطم منها القلب ويهد منها الفؤاد »

رأيت كآبته عميقة وتركتها تنفجر لأن الحزن يخفف من لوعته بالكلمات الصادرة من القلب . وعند ما سكنت عاصفة حزنه ، وتحولت إلى صمت محزن عميق ، أعدت عليه الكرة تدريجا ، وأقنعته بأن يبلغ حالا زوجه عما أصابه من محنة . فهز رأسه باكتئاب مصمما على السكون .

فسألته : « ولكن كيف يمكنك أن تستمر فى إخفاء ذلك عنها ؟ فمن الضرورى أن تعرفه حتى تعد العدة لتبدل حالك ، إذ ينبغى أن تغير طريقة المعيشة . . . » عند ذلك لاحظت عليه سحابة ألم ففاجأته قائلا : « لا تجعل لذلك فى نفسك من هم . فأنى لواثق من أنك لم تطلب سعادتك من طريق المظاهر المادية ، فأنه لا يزال لك أصدقاء أوفياء سوف لا يتركون صحبتك لأنك لا تسكن سكنا فخما . كما أنى واثق أيضا أن سعادتك مع مارى لا تتوقف على أن تسكنا قصرا فخما . »

فصاح متأثرا : « إنى أكون سعيدا معها ولو قضينا حياتنا فى عشة . إنى يمكنى أن أنزل معها إلى الفقر والحضيض . يمكنى ـ يمكنى ـ عسى أن يحوطها الله برعايته . . . » واستمر فى تأوهاته المؤثرة .

قلت له ، وقد تقدمت نحوه وشددت على يديه بأخلاص : « إعتقد ياصديقى أنها ستكون كما كانت لك أولا بل وأكثر . ستكون لها مصدر سرور ونخر . وسينبعث منها كل النشاط والحنو الشديد الذى يكمن فى جنسها ، لأنها ستمتلىء سرورا إذاما برهنت لك أنها تحبك لنفسك فقط . يوجد فى كل قلب مخلص للمرأة شعلة من نار سماوية تظل مختفية أثناء ضوء الرخاء ، ولكنها تضىء وتزداد وهجا فى ساعات الشدائد المظلمة . وما من رجل يقدّر تماما ، ماذا تحمل له زوجه المخلصة من حب . وما من رجل يعرف قدرة هـــذا الملاك الرحيم على عونه ومساعدته ـ مامن رجل يعرف كل هـذا إلا إذا اصطحبها معه فى طريق تجارب هذه الحياة . »

و بالرغم مما قلته فأنى أعترف بأنى كنت قلقا لمعرفة ما حدث بعد ذلك . إذ من ذا الذى يثق بأن تلك التى كانت حياتها كلها سرورا دائما تتحمل مثل هذه الصدمة القاسية ؟ فماذا يمنع أن تثور روحها المرحة أمام هذا الأنقلاب الفجائى فتأبى أن تترك هذه الشمس البهيجة إلى هذه الظلمة الحالكة ؟ و لذلك عند ما قابلت «ليزلى» فى صباح اليوم التالى كنت شديد اللهفة لمعرفة مقدار ما أحدثته نصيحتى من تأثير . فعلمت أنه صرح لها بكل حاله .

فسألته « وكيف تحملت صدمة الخبر ؟ »

فأجاب : تحملتها كملاك كريم ، إذ كان فى تصريحى لها إراحة لها من ذلك الألم النفسانى الذى أجهدها مدة ما . فقدطوقتنى بذراعيها وسألتنى إذا ماكان كل كل ذلك سبب ألمى المكتوم . » وأضاف « ولكن المسكينة لا تعلم التبدل الذى ستعانيه . فليس عندها أى فكرة عن الفقر إلا فى عالم المعانى فقط ، ولا تكاد تدرك شيئاً عنه إلا حيث تقرأه بين تخيلات الأسفار حيث يتصل دائما بالحب . فهى لم تشعر للآن بالفقدان الذى ستعانيه وتتحمله فى متاعها وأناقتها . ولكن عند ما ننزل عمليا إلى التجارب القاسية فلا نحتفظ إلا بالضروريات الماسة ولا نحيا إلا حياة الضعة والهوان ستكون حينئذ هى التجربة الحقة . »

قلت له : « وبمـا أنك الآن قد أجتزت أقصى مرحلة باعترافك لها بحالك فيحسن أيضا أن تبادر وتظهر حقيقة مركزك للعالم . فأنه وإن كان هذا الظهور مؤلما فأن تأثيره لا يلبث حتى يزول . وعندى أن هذا خير لك من أن تعانى فى ترددك ألم الكتمان كل يوم وكل ساعة . ليس الفقر هو الذى يزعج الرجل المعوز ، ولكنه الكفاح بين النفس السامية واليد الخالية ، والاحتفاظ بالمظهر الكاذب الذى ما أسرع أن تنكشف حقيقته . فلتكن لديك الشجاعة لأن تظهر فقيرا فبذلك تجرد الفقر من أحدّ سلاحه . » وماوصلت إلى هذه النقطة حتى وجدت «ليزلى» متأهبا لقبول نصيحتى . أما زوجه فكانت فى اشتياق لتحيا الحياة الجديدة التى تتفق وحالهما الجديدة .

مضت أيام عدة على ذلك ثم زارنى مساء . وكان قد باع مسكنه ثم اكترى كوخا صغيرا فى الريف يبعد أميالا قليلة عن المدينة ، وقد شغل طيلة يومه فى بيع أثاثاته الأولى الفاخرة . أما منزله الجديد فلم يكلفه إلا يسيرا ، ولذلك لم يبق على شىء من مفروشاته الثمينة ، إلا قيثارة زوجه ، لأنها كانت ذكرى لقصة حبهما ، فكان إذا ما رآها يذكر تلك اللحظات السعيدة التى كان يصغى فيها إلى زوجه وهى معتمدة على هذه القيثارة توقع عليها من أنغامها العذبة . ولم يسعنى إلا الابتسام إزاء هذا المثل الأعلى للزوج المحب الخيالى .

كان عندزيارتى متأهبا للذهاب إلى الكوخ حيث زوجه منهمكة فى ترتيبه وتنظيمه . فدفعنى سرورى بنجاح هذه القصة العائلية لأن أرافقه ، خصوصا وأنه كان مساء جميلا . أما هو فقد كان تعبا من مجهود يومه فى البيع ، حتى إذا سرنا فى الخارج انهمك فى تفكير محزن

أخيرا خرجت من فمه آهة طويلة ، أعقبها بقوله « مسكينة مارى »

فسألته : « ماذا بها . هل أصابها شىء ما ؟ »

فأجاب وقد نفذ صبره « وماذا تريد أكثر من أن تنحدر إلى هذا الحضيض وتنزوى فى هذا الكوخ الحقير تشتغل فيه بيديها أحقر الأعمال المنزلية »

فأجبته « ولكن هل سئمت هى ، وضجرت من هذا التبدل »

قال « ضجرت ! على العكس تماما . فقد ازدادت مرحا وسرورا . ولا أذكر أنى رأيتها أحسن مما هى الآن . وقد صارت لى هى كل الحب والحنو والأيناس »

فأجبته ـ وقـــد أعجبت حقا بهذه الفتاة : «ياصديقى ! أنت تدعو نفسك فقيرا ؟ إنك لم تكن أكثر غنى من الآن . ولم تكن تدرى أى كنز ثمين من الأخلاص تدخره فى هذه المرأة . »

قال : « ولكن إذا مامرت هذه المقابلة الأولى فى الكوخ أظن أنى سأكون بعدها مرتاحا . وإنما هذا هو اليوم الأول للتجربة الحقيقية فقد اشتغلت طول يومها فى ترتيب محتوياته الوضيعة . ولأول مرة تدرك بنفسها متاعب أعمال الخدم . ولأول مرة تنظر حولها فلا ترى إلا منزلا مجردا من كل شىء بهيج ، بل وكل شىء مريح . وربما وجدناها الآن جالسة منهوكة القوى وحزينة تصور لنفسها المستقبل المظلم . »

وقد كان فى تخوفه هذا بعض الاحتمال مما جعلنى لا أجرؤ على معارضته فسرنا فى صمت تام .

وبعد أن عرجنا من الطريق العام إلى منحدر ضيق تظلله أشجار الغاب الكثيرة وتزيد فى وحشته ـ وصلنا إلى الكوخ . وكان مظهره الخارجى وضيعا حقا ، ولكنه مع ذلك ظهر بشكل ريفى جميل . تحيط به أشجار باسقة تكاد تحجبه عن الأنظار . وتتسلق على جدرانه شجرة كرم كثيرة الفروع والأوراق وقد استلفت نظرى خارج المنزل عدة أوان من الأزهار منظمة بشكل يدل على ذوق جميل عند المدخل . وكذلك عدة أوان أخرى على قطعة أرض خضراء أمام المنزل ، ويوصل بين الباب الخشبى الخارجى وباب المنزل ممشى يلتوى بين بعض الحشائش النامية . وعند اقترابنا سمعنا فجأة صوت موسيقى فأمسك «ليزلى» بذراعى فوقفنا وأصغينا ـــ إنه كان صوت مارى تغنى بنغم عذب مؤثر إذ كانت تنشد أغنية يحبها زوجها كثيرا

شعرت بيد ليزلى ترتعش على ذراعى . وتقدم خطوة ليسمع بوضوح أكثر ، وسبب وقع خطوته صوتا على الحصى فى الممشى ، فأطل وجه جميل مشرق من النـافذة ثم اختفى وسمعنا وقع أقـدام خفيفة جاءت بعـدها مارى تقفز لتقابلنا . وكانت فى ثياب بسيطة بيضاء وقـــد شبكت بعض الزهور فى شعرها المنسدل . وصبغ خـدها الجميل باللون الوردى ، وكانت كل ملامحها تضيء بالابتسامات حتى أنى لم أرها أكثر جاذبية منها فى هذه اللحظة .

صاحت « عزيزى جورج . كم أنا مسرورة بقدومك ! فكم طال انتظارى لك ، وكثيرا ماخرجت من المنزل إلى الطريق متشوقة لرؤياك . وقد أعددت مائدة تحت شجرة جميلة خلف الـكوخ وجمعت لك كثيرا من الـكريز الذى تحبه . وأحضرت لك قشدة شهية . وكل مايحيط بنا ياعزيزى هادىء وجميل) قالت ذلك وهى لاتزال ممسكة بذراعه ثم نظرت إليه ببشاشة وقالت (سنكون سعيدين جدا ياعزيزى »

تأثر ليزلى المسكين من كل ذلك ، فضمها إلى صدره وطوقها بذراعيه وطبع على فمها قبلات حارة . ولم يتمكن من الـكلام وقد انحدرت الدموع من عينيه . وقد أكد لى حينئذ بأن هذه اللحظة أسعد لديه من أيام نجاحه ومسراته السالفة

حسن شريف الرشيدى

نظرية المعرفة

وعلاقتها بالفلسفة والتصوف

بقلم محرر المجلة

تمهيد

قلنا للقراء عند تقدمتنا لموضوع الأستاذ فريد بك وجدى إنهم سيجدون مقالا لنا عن الموضوع نفسه فى هذا الجزء ذاته . وبما أن المواضيع التى تفضل بها حضرات الكتاب لم تترك لنا مجالا فسيحاً للكتابة . فقد رأينا أن نكتفى بنشر مقدمة وجيزة للبحث ، واعدين بأتمامه فى المستقبل إن شاء الله

يهمنى فى بدء البحث عن هذا الموضوع ، أن أبين المعانى المقصودة لتلك الكلمات ، التى اخترتها عنوانا للبحث . فالمعروف أن بعض الناس يخلطون بين تلك الكلمات بعضها ببعض ، أو يحسبون أن المعرفة العامة أو الفلسفة ، ندان للتصوف ، أو أن التصوف أقل من الفلسفة إن لم يكن أقل من الفلسفة والمعرفة معا

وكذلك اختلف الناس قديماً ، ومايزالون مختلفين حديثاً فى نفس المعرفة ، وعلاقتها بالكون أولا ، والكائن ثانيا . فمنهم من يقول بأنها لا تكون إلا نتيجة الأدراك بالحواس ، وهؤلاء هم الحاسيون ، أو التجريبيون الذين تقوم نظريتهم على بحث العلوم التجريبية بواسطة الأدراكات الحسية . ومنهم من يقرر بأنها لا تكون إلا نتيجة مايدرك بالحواس إدراكا يقينيا أو ظنيا ، مشركين فى هذا التأمل الفكرى ، وهو مايعبر عنه بملاحظة العقل لأعمال الحواس ، وهؤلاء هم الآخذون بمذهب الواقع الذى يقوم على إشراك الحس بالتأمل . و يقرر فريق ثالث بأنها لا تكون إلا نتيجة العقل المحض فى تفكيره ، وهؤلاء هم الذين تقوم أبحاثهم على العقل والاستدلال المنطقى . وهناك فريق رابع يقول بأنها لا تقوم إلا على

التصور العالى للحقائق الكونية ، و بمعنى آخر تذكر الصورة أو المثال الذى كان عليه الكائن فى عالم الحقيقة ، و بمعنى أوضح ، تقوم المعرفة لديه على التأملات المجردة ، والتفكيرات القلبية ، والروحانيات السامية ، والأشراقات النورانية . وهؤلاء هم ما يعبر عنهم بالمثاليين فى لغة الفلسفة ، أوالصوفية فى اعتبار الدينيين

فأنت ترى أن الأمر عسير جد العسر ، ودقيق كل الدقة . وفيه ما يفسح المجال لكل قول ، وأى رأى . وعلى المنصف أن يتسامح فى ظن فريق وخطأ فريق ؛ وللباحث أن يدرك سبب حيرة الناس واختلافهم ، بل سبب ارتطام العلماء بالفلاسفة ، إذا ما علم أن الموضوع الذى نحن بسبيل البحث عنه ، ليس هينا ولا عسيرا

ونحن هنا لا ندعى القدرة على البت فى رأى من تلك الآراء . أو نزعم الأتيان بالقول الفصل فى المسألة ، إذ العصمة والكمال لله وحده

وإنما نود أن نبسط — بقدر طاقتنا — مسائل هذا البحث الخضم ، ونعرض على القراء خلاصة ما حصلناه من اطلاع فى كتبه

ونبدأ الآن الكلام على لفظ المعرفة ومعناها :

المعـــرفة لغة

يؤدى لفظ المعرفة فى اللغة عدة معان متقاربة منها : العلم والأدراك والأقرار وغيره مما يشابه معناه معناها ، وقد وردت فى القرآن الكريم كثيرا بمعنى الأقرار . والأقرار ضد الأنكار . قال تعالى « يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها » ومن ذلك قول الشاعر :

عرفنا جعفرا وبنى أبيه وأنكرنا زعانف آخرينا

ومن لفظ المعرفة ، اشتق اسم العارف . والعارف ـ فى عرف بعض الفلاسفة وفى لغة المتصوفة جميعا ـ هو الرجل المختص بمعرفة الله تعالى عن بصيرة وعلم ومعرفة ملكوته وحسن معاملته ، عن إدراك وذوق

المعرفة اصطلاحا

تعريف المعرفة فى الاصطلاح تعريفا جامعا مانعا أمر فيه خلاف ، هو فى الحق خلاف ليس بالكبير أو الخطير . إذ يكاد يتفق أغلب الفلاسفة والعلماء على أن المعرفة إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره ، أو إدراك الشيء بتمثله فى الذهن ، وتطبيقه على الواقع . ويقول الفيلسوف الألمانى (هربرت) « إن المعرفة مجموع التصورات الحقيقية القائمة بالنفس »

والذى يلوح لنا من هذا التعريف هو أن النفس محل لضروب مختلفة من التصورات : منها ماهو حقيقى . له مصدر ذو وجود خارجى ، تطابق صورته الذهنية للواقع . ومنها ماهو غير حقيقى ، لاوجود لصورته فى الواقع ، فيصبح باطلا لاحقيقة له . أو وهما وخيالا صادرين عن تصورات زائفة . وإذن فالمعرفة الحقيقية — على هذا الأعتبار — تقتضى أن تكون تصورا حقيقيا متلائم الوضع ، مرتبط الأجزاء ، مرتب المقدمات ، سليم المادة ، لاوهن ولاتخلخل فى أسسه ، به تنجلى الحقائق بمقتضى قواعد مخصوصة .

ومهما يكن من خلاف ، فأنا نرى التعريف القائل بأن المعرفة إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره ، أيسر إلى الفهم ، وأقرب إلى التحقيق . وللتدليل على صحة هذا القول نقول : إن الأنسان لايمكنه معرفة ذات الشيء مباشرة — بالمعنى التام المقصود للمباشرة التامة — وإنما معرفة الشيء لاتكون إلا بأدراك أثره أولا .

قد يبدو هذا القول عند بعض الناس غريبا ، ولكنه الحق على مانعرف . فمثلا نرى أن معرفة البشر لذات الله تعالى مستحيلة تمام الاستحالة . وإنما يعرف تعالى بتدبر آثاره فى موجوداته ، والتفكر فى مخلوقاته . يقول الله تعالى « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ويقول أيضا « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وفى الحديث الشريف « تفكروا فى الخلق ، ولاتفكروا فى الخالق فتهلكوا » ويقول أبو نواس من قصيدة له :

تأمل فى نبات الأرض وانظر	إلى آثار ماصنع المليك
عيون من لجين شاخصات	بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات	بأن الله ليس له شريك

أما الآية الأولى فتدلنا على أن النظر لاينصب على الخالق جل وعلا ذاتا، وإنما ينصب على سمائه وأرضه. وتدلنا الآية الثانية على أن التبصر لايكون فى نفسه تعالى، وإنما فى نفوس مخلوقاته. ويرشدنا الحديث إلى أن التفكر لايصح فى الخالق، ولكنه يجب فى الخلق. وكذلك عنى الشاعر تأمل نبات الأرض، وآثار المليك، لا المليك ذاته.

وليس من شك مطلقا فى أن السموات والأرض، أو أنفسنا، أو خلق الله جميعا ماهى، إلا صور، أو مظاهر، أو آثار للخالق جل وعلا، وليست ذاته تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

على أنا سنأتى بعدة أمثلة لتوضيح المسألة عند الكلام على أنواع المعرفة وأقسامها. وإلا لو أخذنا فى سردها هنا، لاختلط الأمر على بعض القراء، وهذا مانخشاه، ونحاول تذليله.

و إذن فلننتقل بالقارئ إلى الكلام عن تدرج نظرية المعرفة، وعن منشأها ودواعى الخلاف فيها قديماً وحديثاً، وموعدنا بهذا الجزء المقبل ؟
